الفصل الثالث

اليهود والسلطة في الأندلس

المبحث الأول: موقف اليهود من الفتح الإسلامي للأندلس.

المبحث الثاني: اليهود والسلطة من الفتح إلى نهاية عصر الخلافة.

المبحث الثالث: اليهود والسلطة في عصر الطوائف.

المبحث الرابع: اليهود والسلطة في عهود المرابطين والموحدين وسلطنة غرناطة

المبحث الأول

موقف اليهود من الفتح الإسلامي للأندلس

احتوت بعض المصادر الإسلامية التي تحدثت عن الفتح الإسلامي للأندلس على العديد من الروايات التي تعبر عن موقف اليهود من ذلك الفتح. إذ يقول مؤلف مجهول في معرض حديثه عن فتح إلبيرة: "فحصروا مدينتها فافتتحت، فألفوا بها يومئذ يهوداً، وكانوا إذا ألفوا اليهود ببلدة ضموهم إلى مدينة البلد، وتركوا معهم من المسلمين طائفة، ومضى عظم الناس، ففعلوا ذلك بغرناطة مدينة إلبيرة، ولم يفعلوا ذلك بمالقة مدينة رية، لأنهم لم يجدوا بها يهوداً ولا عمارة"[1]. ويقول في معرض حديثه عن فتح قرطبة على يد السرية التي قادها مغيث الرومي: "وجمع يهود قرطبة، فضمهم إليها"[2]. وعن فتح موسى بن نصير لإشبيلية يقول: "فأتاها موسى بن نصير، حتى حصرها أشهراً، ثم إن الله فتحها، وهرب العلوج إلى مدينة باجة، فضم موسى يهودها"[3]. وعن فتح طليطلة يقول ابن عذاري: "وألفى طارق طليطلة خالية ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة، وفر علجها مع أصحابه، ولحق بمدينة خلف الجبل، وتبعهم طارق، بعد أن ضم اليهود، وخلّى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة، فسلك إلى وادي الحجارة"[4]. ويقول لسان الدين بن الخطيب:" ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها وفتحوها عنوة، وألفوا بها يهوداً ضموهم إلى قصبة غرناطة، وصار لهم سنة متبعة متى وجدوا بمدينة فتحوها

يهوداً، يضموهم إلى قصبتها، ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها، ثم مضى الجيش إلى تدمير"[5].

والواضح من هذه الروايات أن يهود الأندلس قد قدموا العون للمسلمين في حراسة بعض المدن التي تم فتحها، وأنهم لم يتولوا وحدهم أعمال الحراسة، بل كان معهم دائماً عدد من المسلمين، ومن الطبعي أن يكون المسلمون هم القادة لحاميات الحراسة تلك. ولا توجد أية إشارة في المصادر الإسلامية إلى نوع آخر من المساعدة قدمها اليهود لمسلمي الأندلس.

ومن المؤكد أن أسبابا ً عدة قد حملت اليهود في الأندلس على اتخاذ هذا الموقف من المسلمين الفاتحين، وهذه الأسباب على ما أعتقد هي:-

1- رغبة اليهود في التخلص من حكم القوط الذين أرهقوهم بكثرة القوانين المضيقة عليهم والتي وصلت في عهد الملك إجيكا إلى حد استعبادهم جميعاً[6].

---

[1] أخبار مجموعة، ص21، 22.
[2] م. ن، ص23.
[3] م. ن، ص25.
[4] البيان المغرب، جـ2، ص12.
[5] الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص17.
[6] عن القوانين الخاصة باستعباد اليهود. ينظر:
LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.26;

2- يحصل اليهود من خلال هذا الموقف على الفرصة للانتقام من القوط الذين اضطهدوهم منذ أن تحول الملك القوطي ريكارد إلى المذهب الكاثوليكي سنة (587م)[1]. كما يعطيهم شعوراً بالسيادة والتسلط بعد مدة طويلة من الإهانة والإذلال.

3- من المؤكد أن الأخبار عن أحوال اليهود الذين يعيشون تحت الحكم الإسلامي قد وصلت إلى يهود الأندلس، فرغبوا في حكم المسلمين، وفضلوه على حكم القوط. إذ لا يُتصور أن يجهل يهود الأندلس أخبار إخوانهم في مصر والشام، وقد مضى على حكم المسلمين لهم أكثر من نصف قرن، ومن غير الممكن أن لا تصلهم أخبار اليهود في المغرب وهي لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق مائي صغير.

4- تشجع اليهود على اتخاذ هذا الموقف، لأنهم توقعوا أن مشاركتهم في حراسة مدن قد تم فتحها، وفرّ أو قتل معظم جنودها وقادتها لن يكلفهم إلا القليل من الجهد والتضحية، بينما سيحقق لهم الكثير من المكاسب.

كما كان للمسلمين أسباب دفعتهم لقبول العون من اليهود، وأعتقد أن هذه الأسباب هي:-

1- يبدو أن اليهود أظهروا رغبة قوية في تقديم العون للمسلمين، ولولا حدوث ذلك لما قام المسلمون بإشراكهم في حاميات الحراسة للمدن المفتوحة، فليس من عادتهم أن يُكرهوا أحداً على مساعدتهم.

2- من المؤكد أن المسلمين الفاتحين قد علموا بالعداء القائم بين اليهود والقوط، وأدركوا أهداف اليهود من وراء هذا الموقف، ففضلوا توظيف هذا الوضع لخدمة الفتح.

3- وجد الفاتحون المسلمون أنه ليس في استخدام اليهود في حراسة المدن المفتوحة تحت إمرة المسلمين، أية مخالفة للإسلام الذي يُحرِّم أن ينتظم غير المسلمين في صفوف الجيش الإسلامي، ويقاتلوا معه تحت راية الإسلام، أو تحت أية راية غير إسلامية، ولكنه يسمح بالاستعانة بهم، إذا كانوا في موقع وضيع، ويخضعون لهيمنة وإمرة المسلمين، بحيث لا يطّلعوا على خططهم، أو يكشفوا أسرارهم، أو يكون لهم شأناً، يمكن أن يعزّ من خلاله الكفر[2]. وقد أفتى لاحقاً بذلك الفقيه المالكي محمد بن القاسم، مستندا ً على الأصول نفسها التي من المؤكد أنها لم تغب عن قادة الفاتحين وفقهائهم، حيث قال: "ولا أرى أن يستعينوا بهم يقاتلون معهم، إلا أن يكونوا نواتية أو خدماً فلا أرى بذلك بأساً"[3].

والروايات التي تتحدث عن استخدام الفاتحين لليهود في حراسة المدن التي يتم فتحها، تؤكد على عدم تجاوز الفاتحين لموقف الإسلام، الذي عبر عنه محمد بن القاسم في فتواه. فاليهود لم ينتظموا في صفوف المقاتلين المسلمين، ولم يشاركوا في عمليات الفتح، ولم يقاتلوا تحت راية إسلامية أو يهودية، ولم يكونوا أكثر من نواتية أو خدم يحرسون المدن

ASHTOR, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.221.

[1] ASHTOR, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.220.

[2] بني هذا الحكم على عدد من النصوص الشرعية منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم لمن لحقه يوم بدر من المشركين يريد القتال مع المسلمين:" ارجع فلن أستعين بمشرك" ينظر: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص210.
وقول الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار الذين قالوا له يوم أحد، ألا نستعين بحلفائنا من يهود: "لا حاجة لنا فيهم" ينظر: مالك بن أنس الأصبحي، وآخرون، المدونة الكبرى، م2، جـ3، (مصر، مطبعة السعادة، بغداد، مكتبة المثنى، 1323هـ)، ص40-41.

[3] مالك وآخرون، المدونة، م2، جـ3، ص40-41.

المفتوحة. وحتى هذه المهمة لم يتولوها وحدهم، بل كانوا دائماً تحت إمرة المسلمين، الذين كانوا يتركون معهم عدداً من المجاهدين، بالرغم من حاجتهم الشديدة إليهم[1].

4- لم يكن عدد المسلمين الذين دخلوا الأندلس كبيراً، إذ كانوا نحو اثني عشر ألفا مع طارق[2]، وثمانية عشرة ألفاً مع موسى بن نصير[3]، وقيل بل عشرة آلاف[4]، ولذلك وجد المسلمون أن استخدام اليهود في أعمال الحراسة لا يضطرهم إلى ترك عدد كبير من الجنود لحراسة المدن التي تم فتحها، في الوقت الذي يواصلون فيه الفتح ويحتاجون إلى أكبر قدر من جنودهم.

وقد خاض بعض المؤرخين المعاصرين من اليهود في موضوع المساعدة التي قدمها يهود الأندلس للمسلمين الفاتحين، وجعلوا لهم دوراً كبيراً في فتح الأندلس، ولم يكتفوا بالمبالغة وتضخيم الدور اليهودي، وإنما لجأوا أحياناً إلى الاختلاق، وقلب الحقائق، فمثلا ً يقول سيمون دوبنوف(SIMON DUBNOV): "وتضمن الجيش الإسلامي الكتيبة البربرية اليهودية المنضمة إليهم، والتي يقودها المحارب الذي يحمل اسماً يهودياً وهو خولان اليهودي، الذي فتح الجزء الأكبر من قطلونيا"[5].

ولا يوجد لمزاعم سيمون أي أساس من الصحة، فليس هناك قائد يهودي يحمل اسم خولان، ولم يشارك اليهود مطلقاً في فتح قطلونيا أو غيرها، لا مشاركة فردية، ولا على شكل كتيبة مستقلة. وهذه المعلومات لم أجدها في أي مصدر عربي أو أسباني أو يهودي، ولم يشر سيمون نفسه إلى مصدرها، ولا يستطيع أن يفعل، لأن خياله المغرض فقط هو مصدر هذه الاختلاقات.

ويغضُّ سيمون الطرف عن الحقائق الجلية التي ذكرتها المصادر الإسلامية بخصوص استخدام اليهود في حراسة المدن[6]، ويجعل منهم مقاتلين أكفاء يختارهم كل من موسى وطارق، ويضعانهم في مقدمة المقاتلين المسلمين، إذ يقول: "قام القائدان طارق وموسى بتسليح المجموعات اليهودية، وجعلاهم حراساً يعتمدان عليهم، كما وضعاهم في مقدمة قواتهم العادية[7]. وهو أيضاً لم يشر إلى أية مصادر[8].

ويتحدث أيضاً عن فتح طليطلة فيقول: "وعملت الكتيبة اليهودية في طليطلة كرمز للتمرد التاريخي، وأصبح اليهود والمسلمون سادة المدينة"[9]. والملاحظ أنه يستخدم مصطلحات توحي بأن اليهود هم الذين حققوا الانتصار على القوط، فهو

---

[1] ينظر: مجهول، أخبار مجموعة، ص22، 23، 25؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص12؛ ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص101.

[2] مجهول، أخبار مجموعة، ص17؛ ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص44.

[3] مجهول، أخبار مجموعة، ص24.

[4] ابن الشباط، صلة السمط، ص144-145؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص13.

[5] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.527.

[6] عن استخدام اليهود في حراسة المدن الأندلسية المفتوحة. ينظر: مجهول، أخبار مجموعة، ص21-23، 25؛ ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص101؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص12؛ الحميري، الروض، ص394.

[7] HISTORY OF THE JEWS VOL.2, P.527.

[8] ينظر: IBID, VOL.2, P.527.

[9] IBID, VOL, 2, P.527.

يسمي المستخدمين من اليهود في أعمال الحراسة "بالكتيبة اليهودية" وَيَعُدّهُمُ رمزاً للتمرد التاريخي، مع أنهم لم يتحركوا ضد قسوة القوط عليهم إلا بعد أن تم فتح المناطق والمدن التي يعيشون فيها، ولم يكن تحركهم بعد الفتح أكثر من عرض خدماتهم على المسلمين، الذين وافقوا على استخدامهم في أعمال الحراسة فقط.

ويقول إنهم أصبحوا هم والمسلمون سادة المدينة، حتى أنه يقدم ذكرهم في موضوع السيادة على المسلمين. والعجيب أنه يسمي اليهود سادة، وهم والنصارى أمام القانون الإسلامي سواء[1]، وعليهم كالنصارى أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[2].

أما إلياهو آشتور (ELYAHU ASHTOR) فقد كان أكثر اعتدالاً من دوبنوف إذ يعترف أن دور اليهود في عملية الفتح لم يتجاوز أعمال الحراسة، مع احتمال تقديم

المعلومات المفيدة للفاتحين[3]، ولكنه يجعل لهذه الحراسة أثراً كبيراً في عمليات الفتح[4]، ويعد استخدام المسلمين لليهود في أعمال الحراسة دليلاً على كفاءتهم القتالية، وأنهم شعب محارب متميز ومختلف عن بقية يهود العالم، ويخوض في هذه المسألة باحثاً عن الأسباب التي جعلت يهود الأندلس شعباً مقاتلاً[5]، ثم يقول: "إن رجالاً من هذا النوع يعدون حلفاء ملائمين للشعوب المقاتلة والفاتحة[6] ويقول: "هكذا كان يهود أسبانيا لمئات السنين، وهكذا كانوا عندما فتح المسلمون هذه الأرض"[7].

وأختلف مع آشتور في هذه المسألة، وأرى أنه مبالغ في تضخيم أثر يهود الأندلس على الفتح، وفي جعلهم شعباً مقاتلاً، يحرص الفاتحون على كسبهم إلى جانبهم، وذلك للأسباب الآتية:-

أولا ً: لو كان يهود الأندلس شعباً مقاتلاً شجاعاً، لانتفض على القوط الكاثوليك الذين ظلوا يصدرون القرارات القاسية ضده على مدى أكثر من مئة سنة، لكنه لم يحرك ساكناً حتى عندما صدر قرار بتحويلهم جميعاً إلى عبيد، وتوزيعهم على أسياد نصارى، وانتزاع أبنائهم منهم، وتسليمهم للأديرة والعائلات النصرانية ليتربوا على أيدي النصارى[8].

ولم يكن ينقصهم في ذلك الوقت العدد أو المال، إذ كانوا أضعاف عدد الفاتحين المسلمين[9]، وكانوا يملكون الثروات والإقطاعات الواسعة[10].

ثانيا ً:لو كان يهود الأندلس شجعاناً مقاتلين منذ مئات السنين، لتمكنوا من تكوين حكم لهم، ولو في جزء صغير من هذه

---

[1] ينظر: مالك، المدونة، م5، جـ12، ص135؛ جـ13، ص201.
[2] ينظر، سورة التوبة، آية: 29.
[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.16.
[4] IBID, VOL.1, P.16.
[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.24-25.
[6] IBID, VOL.1, P.25.
[7] IBID, VOL.1, P.25.
[8] LINDO, THE JEWS OF SPAIN, P.26.
[9] ينظر: جوزيف ماك كيب، مدنية المسلمين في أسبانيا، ترجمة: محمد تقي الدين الهلالي، (الرباط، 1985م)، ص95.
[10] BEAR, A HISTORY OF THE JEWS IN CHRISTIAN SPAIN, VOL.1, P.17-18.

البلاد التي يتواجدون فيها قبل الرومان والوندال والقوط[1]، لكننا نلاحظ أنهم كانوا يسعون فقط للتقرب من حكام كل عهد جديد، ويهنأون بالعيش في خدمتهم، إذا سمح لهم بذلك[2].

ثالثا ً: هاجم النصارى الأسبان في مدينة إشبيلية حامية الحراسة التي شارك فيها اليهود وقد عجز اليهود الذين تباهى آشتور بقدراتهم القتالية عن صد مهاجميها، واستشهد نحو ثمانين مسلماً، ولم تشر المصادر التي ذكرت هذا الخبر إلى سقوط قتلى من الحراس اليهود[3].

ولا أجد تفسيراً مقبولاً لعدم سقوط قتلى منهم إلا أن عددهم في حامية الحراسة كان قليلاً، وأنهم لاذوا بالفرار، وتركوا مواقعهم، وبقي المسلمون يقاتلون وحدهم، فسقط منهم كل هذا العدد. وهم في ما أظن معظم رجال الحامية المسلمين الذين تركهم موسى في المدينة، فقد كان موسى بحاجة لجنوده في عمليات الفتح الأخرى، ولا أعتقد أنه ترك فيها أكثر بكثير من ثمانين رجلاً.

وقد ظلت المدينة تحت سيطرة المهاجمين من دون أن تشهد مقاومة من سكانها اليهود الذين يعدهم آشتور شعباً مقاتلاً وحلفاء ملائمين، ولم تعد إلى المسلمين إلا بعد أن انتهى موسى بن نصير من فتح ماردة، حيث أرسل إليها ولده عبد العزيز فأعاد فتحها، وأدَّب المتمردين. وعن ذلك يقول صاحب كتاب أخبار مجموعة: "ثم إن عجم أهل إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين، وجاءوا من مدينة يقال لها لبله، ومدينة يقال لها باجه، فقتلوا من بها من المسلمين، قُتل فيها ثمانون رجلاً، فقدم فلُّهم على موسى بن نصير بماردة، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية، فافتتحها ورجع"[4]. ويقول ابن عذاري: "لما اشتغل موسى بن نصير بحصار ماردة ثار عجم إشبيلية، وارتدوا على من كان فيها من المسلمين. وتجالب فلُّهم من مدينتي لبله وباجه، فقتلوا من المسلمين نحو ثمانين رجلاً وبلغ الخبر بذلك إلى موسى بن نصير، فلما استتم فتح ماردة، بعث ابنه عبد العزيز بجيش إلى إشبيلية فافتتحها، وقتل أهلها"[5].

رابعا ً: يتناقض آشتور مع نفسه في موضع آخر، فيقول: "من الصعب التصديق بأن المسلمين قد تحالفوا مع جماعة من الناس، لم يكونوا من إحدى الزمر المقاتلة قبل الفتح"[6].

خامسا ً: لم يكن طارق يعلم، وهو يتقدم بجيشه نحو المدن الأندلسية، أنه سوف يجد فيها يهوداً سيساعدونه في حراستها، وكان مع ذلك يتقدم بسرعة وحماس، وهو على ثقة بأن جنوده وحدهم يمكنهم أن يؤدوا كل ما يتطلبه الفتح من احتياجات.

ولو أنه شعر بقلة جنوده لما تقدم على أمل أن يجد يهوداً يمكن أن يساعدوه، ولقام على الفور بالتوقف وطلب المدد من قائده موسى، وقد فعل ذلك بعدما يقارب السنة على دخوله الأندلس، حيث لم يركن إلى مساعدة اليهود، بل أرسل إلى

---

(1) لقد ناقشنا ذلك في الفصل الأول من هذا البحث، ورجحنا أن اليهود يسكنون في أسبانيا منذ عهد إشبان في القرن السادس قبل الميلاد، أي قبل مجيئ الرومان والوندال والقوط.

(2) ينظر: عبد العليم، اليهود في مصر في عهدي البطالمة والرومان، ص139.

(3) مجهول، أخبار مجموعة، ص18؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ 2، ص15.

(4) مجهول، ص26.

(5) البيان المغرب، جـ2، ص15.

(6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.22.

موسى بن نصير يطلب الغوث[1]، وذلك بعد أن لاحظ أن العديد من جنوده قد استشهدوا، وأن كثيراً منهم قد توزعوا على المدن المفتوحة لحراستها، وقد هب موسى لنجدته، ودخل الأندلس بنفسه على رأس نحو ثمانية عشر ألف مجاهد[2].

سادسا ً: لم تتحدث المصادر الإسلامية عن وجود يهود في المدن التي فتحها موسى بن نصير إلا في إشبيلية ويصرح آشتور أن ذلك لخلو تلك المدن منهم[3]، ومع عدم وجودهم، وقلة عدد الجيش الإسلامي مقارنة بجيوش القوط، كان هذا الجيش يحقق الانتصارات والفتح السريع[4]، مثلما فعل طارق وجيشه.

سابعا ً: لم يتقدم الجيش الإسلامي ذو العدد القليل بهذه السرعة في قلب الأندلس، لأنه كان مستفيداً من خدمات اليهود كما يقول إلياهو، ولكن لأن هذه هي طبيعة المجاهدين المسلمين، منذ أن بدأت سرايا الجهاد والفتح تجوب الأرض شرقاً وغرباً، تنشر نور الإسلام، فقد كانوا في معظم معاركهم أقل بكثير من أعدائهم، وكانوا دائماً يحققون الانتصار، ويتوغلون بسرعة وسط الجموع الكثيفة من الأعداء.

فقد هزم طارق بنحو اثني عشر ألف مجاهد[5]، حوالي مئة ألف مقاتل قوطي حسب إحدى الروايات، يقودهم حاكم أسبانيا لذريق في معركة كورة شذونة[6]. واقتحم عمرو بن العاص مصر بنحو ثلاثة آلاف وخمس مئة مجاهد[7]. وحقق المسلمون انتصاراً ساحقاً على الروم في معركة اليرموك بالرغم من التفوق الروماني الكبير على المسلمين في العَدد والعُدَد[8]. وكان القادة في ميادين القتال، يرسلون إلى الخليفة في المدينة المنورة، يطلبون المدد، فيرسل إليهم أحياناً رجلاً واحداً، ويقول: "لا يهزم جيش فيهم مثل هذا"، فترجح به كفة المسلمين، ويتحقق النصر[9].

إن مسالة التساوي في القوى المادية بين الجيشين المتحاربين لم تكن قانونا ً معتبرا ً عند الفاتحين المسلمين[10]، فهم مطالبون أن يعدوا لأعدائهم ما استطاعوا من هذه القوى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ [11] لكنهم مطالبون قبل ذلك أن يعمقوا إيمانهم ويرسخوا عقيدتهم، ويلتزموا

---

[1] ابن خلدون، العبر، جـ4، ص254.

[2] مجهول، أخبار مجموعة، ص24.

[3] THE JEWS, VOL.1, P.16.

[4] مجهول، أخبار مجموعة، ص24 -25؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص4-19.

[5] مجهول، أخبار مجموعة، ص17.

[6] م.ن، ص18-19.

[7] البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، ق1، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه: صلاح الدين المنجد، (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1957م)، ص249.

[8] ينظر: م. ن، ص141؛ الطبري، تاريخ، جـ3، ص402.

[9] كما حدث عندما طلب خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ النجدة من أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ، أثناء حربه للفرس، فأرسل إليه برجل واحد، هو القعقاع بن عمرو التميمي، وقال: "لا يهزم جيش فيهم مثل هذا". الطبري، تاريخ، جـ3، ص346-347.

[10] لقد عبر المسلمون الأوائل عن هذه الحقيقة، فخاطب عبد الله بن رواحة المسلمين في معركة مؤتة، وكانوا نحو ثلاثة آلاف مجاهد يواجهون حوالي مئة ألف من الروم بقوله: "وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة " ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، السيرة النبوية، جـ2، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي (القاهرة، 1375هـ-1955م)، ص375. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "إن الله لم ينصرنا مع نبيه صلى الله عليه وسلم بكثرة العدد، ولا بكثرة الجنود". الكاندهلوي، محمد يوسف، حياة الصحابة، جـ4، (دمشق، 1389هـ-1996م)، ص640.

[11] سورة الأنفال، من الآية 60.

بتعاليم دينهم، بحيث يصبح الموت عندهم في سبيل الله أحب إليهم من الحياة.

وقد نجح المسلمون في تحقيق ذلك فوصفوا بأنهم: "بالليل رهبان، وبالنهار

فرسان"[(1)]، وأنهم "لا يثبت لهم العدو فواق ناقة عند اللقاء"[(2)]، وأنهم يحرصون على الموت حرص أعدائهم على الحياة[(3)]، وأنهم حسب قول "قاره" أعظم ملوك الإفرنج زمن الفتح الإسلامي للأندلس[(4)]: " كالسيل يحمل من يصادره، وهم في إقبال أمرهم، ولهم نيات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع"[(5)].

لقد صنع هؤلاء الفاتحون ما يثير الإعجاب، الذي يصل أحياناً بآشتور وغيره إلى عدم التصديق بأن آلافاً عدة من المسلمين، يمكن أن يحققوا هذا الانتصار الساحق خلال هذه المدة القصيرة، في تلك البلاد الواسعة، ذات السكان الذين يصل عددهم إلى بضعة ملايين، دونما مساعدة فاعلة من اليهود وغيرهم.

ولقد فصلت في الرد على هذه الكتابات، لأني وجدت من الكتاب العرب من يقول متأثراً بها: "لا شبهة أن لليهود ضلعاً كبيراً في فتح أسبانيا، وإن أهمل ذكرهم مؤرخو العرب والأسبان"[(6)].

ولا أدري كيف يسمح هذا لنفسه أن يقبل ادعاءات كتاب يهود لم يقدموا عليها دليلاً، ويتحمس لها أكثر من أصحابها، ولا يكتفي بعدم تصديق جمهور المؤرخين المسلمين، بل يتهمهم بالتعمد في إهمال دور اليهود في الفتح!.

حقاً لقد ابتلي التاريخ الإسلامي بكثير من أبناء العرب والمسلمين، الذين كانوا بكتاباتهم معول هدم في أيدي المغرضين، يؤثرون فيهم، ثم يتركونهم يخربون بيوتهم بأيديهم. لقد كتب الكثير عن التاريخ الإسلامي، بأيدي هؤلاء المتأثرين بالشبهات، فخرجت كتاباتهم تقدم تاريخاً مشوهاً منفراً، وكادت أن تغيب الحقيقة الناصعة المشرقة لهذا التاريخ التي يمكن أن تسهم بشكل فاعل في بعث جديد لخير أمة أخرجت للناس.

---

(1) الكاندهلوي، حياة الصحابة، جـ4، ص640.

(2) م. ن، جـ4، ص644.

(3) الطبري، تاريخ، جـ3، ص344، 346، 348.

(4) المقري، نفح الطيب، م1، ص274.

(5) م. ن، م1، ص275.

(6) النصولي، أنيس زكريا، الدولة الأموية في قرطبة، (بغداد، 1926م)، ص10-11.

المبحث الثاني

اليهود والسلطة من الفتح إلى نهاية عصر الخلافة

(92-399هـ=711-1008م)

بالرغم من قلة الروايات التاريخية التي تتحدث عن علاقة يهود الأندلس بحكامها من الفتح إلى نهاية عصر الخلافة، إلا أن الإشارات القليلة المتوفرة تدل على أنها كانت علاقة هادئة وحسنة.

والأسباب والإشارات التالية هي التي تقودنا إلى هذا الاستنتاج:-

أولا ً: لم يقم اليهود طوال هذه المدة التي تزيد على ثلاثة قرون بأي تمرد على السلطة الحاكمة في الأندلس، كما لم تثبت مشاركتهم في أيٍ من التمردات العديدة، وحركات الخروج على الحكم التي قام بها غيرهم[1]، بل كانوا يتعاونون في بعض الأحيان مع السلطة ضد الخارجين عليها. إذ يروي العذري أن خروجا ً على السلطة قد حدث في إشبيلية سنة (155هـ=772م) في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (138-172هـ=788-796م)، وأن الخارجين زحفوا إلى قصر واليها محمد بن عبد الله، وحاربوه أشد الحرب وتغلبوا على الكثير من دوره، وحاصروه. وعندما جاء جند الأمير فتح اليهود لهم باب قرمونة، وهو أحد أبواب إشبيلية"[2]، "فوضعوا أيديهم في قتل المولدين، ولمّا سمع المحاصرون لمحمد الطبول حلّوا حربهم عن القصر، وخرجوا هاربين من المدينة"[3].

وعندما حدث التمرد الكبير للمولدين في الأندلس، والذي حرض عليه وقاده عمر بن حفصون في أواخر عهد الأمير محمد الأول (238-273هـ=852-886م)، خضعت الكثير من المناطق والمدن الواقعة جنوبي قرطبة لسيطرة ابن حفصون، وأعطاه الكثير من سكانها ولاءهم[4]، بينما ظلت مدينة أليسانة التي تقطنها أغلبية من اليهود[5]، موالية للسلطة في قرطبة، ومن أجل ذلك تعرضت في سنة (278هـ=891م) لحصار ابن حفصون. يقول ابن حيان: "وتمادى انتفاض عمر بن حفصون في عقب سنة سبع وسبعين ومئتين، وأقام بحصن بلاي مصطفاه يحصنه ويقويه ويحاصر من تلقائه كورة قبرة وحصونها ومدينة أليسانة يهود الذمة، وغيرها من المدن والحصون المجاورة لأحواز قرطبة"[6].

وبالرغم مما يظهره هذين الموقفين لليهود من ولاء للحكومة المركزية في قرطبة، إلا أنني أعتقد أنهما لم يصدرا

---

[1] عن حركات التمرد والخروج. ينظر: ابن حيان، المقتبس، نشر: الأب ملشور م. أنطونيه، ص9-147؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص18، 22، 25، 27-28، 31-34.

[2] ترصيع الأخبار، ص101-102.

[3] م. ن، ص102.

[4] ابن حيان، المقتبس، نشر: الأب ملشور م. أنطونيه، ص50-52؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص106-119؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص31؛ ابن خلدون، العبر، جـ4، ص134-135؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.108-109.

[5] الإدريسي، نزهة المشتاق، م2، ص571-572؛ ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، ص80؛
H. BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.

[6] ابن حيان، المقتبس، نشر: ملشور م. أنطونية، ص93.

عنهم، بدافع من الوفاء أو الالتزام بالعهود والمواثيق، بل لأن هذين الموقفين وأمثالهما من المواقف التي اتخذها اليهود في ذلك الوقت، تحقق المصلحة لهم، إذ من مصلحتهم أن تكون هناك حكومة قوية توفر لهم الأمن، وتعطيهم حقوقهم كأهل ذمة، وليس من مصلحتهم أن يخضعوا لمجموعة من المشاغبين والعصاة فيعتدوا على أموالهم ويضيعوا حقوقهم.

كما فضَّل اليهود أن يتخذوا مواقف تحفظهم، وتحسب لهم في المستقبل، إذ توقعوا أن الهزيمة هي مصير الخارجين على الحكومة المركزية التي تحظى بدعم غالبية المسلمين، وليس من الحكمة أن يتخذوا موقفاً يربط مصيرهم بالمصير السيئ الذي ينتظر هؤلاء الخارجين.

ولاشك أن يهود أليسانة قد اتعظوا بما فعله ابن حفصون بسكان بيَّانة التي كان يقطنها عدد كبير من اليهود[1]، إذ يقول ابن عذاري أنه في سنة (276هـ=889م): "نقض ابن حفصون، وقصد بيَّانة، فحارب أهلها، ثم أعطاهم العهد، فلما نزلوا إليه غدرهم وقتلهم، وأخذ أموالهم، وسبى ذراريهم"[2].

وفي معرض تفسيره لموقف يهود أليسانة من تمرد ابن حفصون يقول آشتور:"كانت مصالح التجار والصناع تتطلب أن تظل تلك الوحدة الاقتصادية الكبيرة التي كانت قرطبة بؤرتها خالصة من الأذى، ومن هنا يمكننا الاستدلال أن اليهود الذين كان من بينهم العديد من التجار والصناع، لم يكونوا مهتمين بمساندة ابن حفصون"[3].

ثانيا ً: شهدت الأندلس منذ فتحها وحتى نهاية عصر الخلافة هجرة يهودية واسعة إليها[4]، حتى أن الأحياء اليهودية في بعض مدن الأندلس لم تعد تتسع للمزيد منهم، مما دفعهم إلى اتخاذ أحياء أخرى كما حدث في قرطبة[5]. وقد قدر بعض الباحثين عددهم في الأندلس في عصر الخلافة بأكثر من نصف مليون نسمة[6]. وقدرهم الباحث اليهودي آشتور بمئات الآلاف[7].

وأعتقد أن هذه الأرقام مبالغ فيها، ولا تدل عليها مساحات أحيائهم التي سبق أن بينا حدودها في معظم مراكز تجمعهم في الأندلس. ولا تتوفر معلومات دقيقة تمكننا من تحديد عددهم، لكننا نستطيع القول أن تواجدهم كان واضحا ً وكبيرا ً. ولولا أن اليهود كانوا راضين عن القدر الذي يعطيه لهم حكام الأندلس من الحقوق، وعما يفرضون عليهم من واجبات لما هجروا بلدانهم التي نشأوا فيها واعتادوا عليها، وتوجهوا للاستقرار في الأندلس.

ثالثا ً: عجب الحكم الأول (180-206هـ=796-822م) من تصرف اليهودي الذي أخفى في بيته لمدة سنة الفقيه طالوت، المطلوب للسلطة، بسبب مشاركته في ثورة الربض سنة (202هـ=817م)، وقال للوزير الذي دله وحرضه عليه عندما لجأ

---

[1] ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ1، ص105، ترجمة رقم: 39.

[2] البيان المغرب، جـ2، ص122.

[3] THE JEWS, VOL.1, P.108.

[4] IBID, VOL.1, P.29-32 ; ASHTOR, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.222.

[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.298; H. BEINART, CORDOBA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.665.

[6] ينظر: التل، عبد الله، خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية، (بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1979م)، ص117؛ الكواتي، اليهود في المغرب، ص212.

[7] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.30.

إليه طالوت ليشفع له: "يا أبا البسام، رجل من اليهود حفظ فيه علة من العلم والدين، وخاطر معنا بنفسه وماله وأنت غدرته، وقد وثق بك، أردت أن تهلكه هو وأهله، اخرج عني، فو الله لا رأيت لي وجهاً أبداً"[1]، وعفا عن طالوت وعن اليهودي وعقبه من بعده وعزل أبا البسام[2].

إن تقدير الحكم الأول لموقف اليهودي وعفوه عنه بالرغم من إيوائه شخصاً مطلوباً للأمير نفسه دليل على الإنصاف والإحسان الذي تعامل به الحكام في ذلك الوقت مع اليهود. وهو مؤشر أيضاً على ثقة السلطة في ذلك الوقت باليهود، فلو كان لهم ضلع في مؤامرة سابقة ضد الأمراء الأمويين في الأندلس لأساء الحَكَمُ تفسير تصرف اليهودي. كما تشير هذه الحادثة إلى التقدير الذي كان يلقاه الفقهاء حتى من قبل اليهود، فلو أن الفقهاء كانوا يحرضون الحكام على اليهود كما اتهمهم بعض الكتاب[3]، لساءت العلاقة بينهم، ولما لجأ الفقيه ابن طالوت إلى بيت اليهودي، لأنه لن يتوقع أن يجد عنده ملجأ، ولما خاطر اليهودي بنفسه وماله من أجل حفظ حياة فقيه مطلوب للسلطة الحاكمة. ولولا أن يهود ذلك العصر كانوا مسالمين وموالين للسلطة، لكان الفقهاء أول المحرضين عليهم، ولما حصلوا على تقدير مثل هذا اليهودي.

رابعاً: لم يطالب حكام الأندلس طوال هذه المدة اليهود بالالتزام بزي خاص، ولم يفرضوا عليهم قيوداً في مسكنهم أو مركبهم، وذلك لأنهم لم يجدوا منهم ما يحملهم على تطبيق أحكامٍ يُعَدُّ إلزامهم بها في حكم المستحب[4]، ولم يطالب فقهاء ذلك العصر الحكام بإلزام اليهود بتلك الأحكام، إذ كان الوفاق بين المسلمين واليهود حينذاك هو الغالب على العلاقة بينهم، وقد طالب الفقهاء بتطبيق تلك الأحكام في العصور اللاحقة في الأندلس عندما تطاول اليهود على المسلمين، وتآمروا عليهم مع أعدائهم، ونقضوا عهد الذمة.

خامساً: عمل يهودي يدعى منصور مغنياً لدى الحكم الأول، وعندما علم الحكم بوصول زرياب إلى المغرب أرسل إليه منصوراً اليهودي ليدعوه للعمل لديه، وقبل زرياب الدعوة وغادر هو وأفراد أسرته واليهودي المغرب، وتوجهوا إلى الأندلس، وقبل وصولهم علموا بوفاة الحكم، فَهمَّ زرياب بالرجوع[5]، لكن منصوراً "ثناه عن ذلك، ورغبه في قصد القائم مقام الحكم، وهو عبد الرحمن ولده، وكتب إليه بخبر زرياب، فجاءه بكتاب عبد الرحمن يذكر تطلعه إليه والسرور بقدومه، وكتب إلى عماله أن يحسنوا إليه، ويوصلوه إلى قرطبة"[6].

إن سماح الحكم ليهودي بالعمل في قصره مغنياً، وإرساله إلى زرياب رسولاً، يدل على ثقة الحكم بهذا اليهودي، كما أن حرص اليهودي على مجيئ زرياب إلى قرطبة للعمل عند عبد الرحمن بن الحكم، بالرغم من علمه بقدرات

---

[1] ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، م1، ص243-244؛ ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص15.

[2] ينظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص70-72 ؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص21-22؛ ابن عاصم الغرناطي، جنة الرضا، ص243-244.

[3] ينظر: مؤنس، حسين، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الأموية، (القاهرة، 1959م)، ص454؛ حركات، إبراهيم، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، (الدار البيضاء، منشورات مكتبة الوحدة العربية، د.ت)، ص129؛ حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، جـ1، (الدار البيضاء، دار الإرشاد الحديثة، ط2، د.ت)، ص217؛ بو تشيش، إبراهيم القادري، المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، مجلة دراسات أندلسية، (تونس، ع11، 1984م)، ص23.

[4] ينظر: الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، (بغداد، 1409هـ-1989م)، ص229.

[5] المقري، نفح الطيب، م3، ص124-125.

[6] م. ن، م3، ص125.

زرياب في مجال الغناء، وأنه سيكون منافساً قوياً له، وربما يضعف مكانته، دليل على إخلاص ذلك المغني اليهودي لهذين الحاكمين، وحرصه على التقرب منهما، وكسب ودهما.

سادساً: شكا تاجر يهودي من مارده أميرها محمد بن عبد الرحمن إلى القاضي سليمـان بن أسود، لأنه أخذ جارية منه دون أن يسدد ثمنها أو يردها إليه فهدد القاضي الأمير بالسفر إلى قرطبة لإبلاغ والده الأمير عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ=822-852م) إذا لم يعطِ اليهودي حقه، فاستجاب الأمير ودفع ثمن الجارية[1]. إن عدم تهيب اليهودي من رفع تظلمه إلى القضاء، مع أن خصمه هو الوالي نفسه وابن حاكم الأندلس، دليل على أن اليهود كانوا يعاملون فيها بالعدل، ولا يتوقعون من حكامها وقضاتها إلا الإنصاف.

سابعاً: يتحدث مؤرخ لاتيني عن حملة قام بها المسلمون سنة (247هـ=861م) لفتح مدينة برشلونة، ويذكر أن اليهود ساعدوا المسلمين على دخول المدينة[2].

فإذا صحت هذه الرواية فإنها تدل على أن اليهود الذين كانوا يعيشون تحت حكم النصارى في الشمال الأسباني، كانوا يفضلون حكم المسلمين على النصارى، ومن المؤكد أن هذا الموقف قد تكوّن لدى يهود برشلونة بناء على معلومات عن العدل والتسامح الذي ينعم به إخوانهم اليهود في الأندلس.

ثامنا ً: حصل اليهود في الأندلس على الحرية الدينية، ولم يجبروا على الدخول في الإسلام، كما تُرِكَ المُنصَّرون من اليهود في عهد الحكم القوطي يعودون إلى دينهم، إذ تذكر النصوص اللاتينية أن حركة تَهَوّد كبيرة قد حدثت بين المنصرين اليهود في بداية الحكم الإسلامي[3].

وقد أقلق ذلك النصارى خارج الأندلس، فطالب هدريان الأول (HADRIAN) سنة (169هـ=785م) من أساقفة الأندلس الحد من نشر النفوذ الديني لليهود على طوائفهم[4].

تاسعا ً: روى كل من ابن حيان وابن عذارى أن عبد الرحمن الداخل مر وهو في طريقه إلى المغرب بأفريقية، وكان واليها حينئذ عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وكان عنده يهودي قد خدم مسلمة بن عبد الملك، وقد أخبر هذا اليهودي عبد الرحمن بن حبيب أنه سمع من مسلمة بأن قرشياً من بني أمية سوف يتغلب على الأندلس اسمه عبد الرحمن وله ضفيرتين، فتمنى عبد الرحمن بن حبيب أن يكون هو ذلك الرجل، "فاتخذ ضفيرتين"[5]، فلما جيئ بعبد الرحمن و نظر إلى

---

[1] ابن سعيد، المغرب، جـ1، ص151، ترجمة رقم: 91؛ النباهي، المرقبة، ص56-57.

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.100.
SALO, ASOCIAL AND RELIGIOUS HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.34;
كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، ص45.

[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.34.
نقلاً عن:
A. G VEGA, UNA HEREJIA, JUDAIZANTE DE PRINCIPIOS DEL SIGLO, VIII, EN ESPANA, CIUDAD DE DIOS 153 (1941): 57.

[4] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.160.

[5] ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص61؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص28-29، (رواية ابن حيان).

ضفيرتيه قال لليهودي: "ويحك هذا هو، وأنا قاتله، فقال له اليهودي: إنك إن قتلته فما هو به، وإن غُلبتَ على تركه إنه هو"[1]، "ثم صار الفهري يقتل الواصلين إليه من بني أمية، ويأخذ أموالهم، فهرب عبد الرحمن إلى القيروان"[2].

وواضح من خلال هذه الرواية أن اليهودي خذ ّ ل عبد الرحمن بن حبيب عن قتل عبد الرحمن الداخل. ويذكر برويد في الموسوعة اليهودية، أن هذا اليهودي قد توجه إلى الأندلس عندما أصبح عبد الرحمن الداخل أميراً لها، فاتخذه عبد الرحمن مستشاراً له[3].

ولم أجد في المصادر الإسلامية ما يشير إلى اتخاذ عبد الرحمن لهذا اليهودي مستشاراً له.

عاشرا ً: هناك راهب نصراني من أصل ألماني يدعى بودو عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وقد ارتقى في المناصب الكنسية حتى صار كاهناً في بلاط الملك الأسباني لويس التقي، ثم تشكك في عقيدته، والتقى بعدد من التجار اليهود الذين كانوا يترددون على بلاط الملك، واقتنع بدينهم، وعندما قرر اعتناق اليهودية، احتال على الملك، وتوجه إلى الأندلس، وفي احتفال ديني لليهود في سرقسطة سنة (224هـ=838م) أعلن عن اعتناقه اليهودية، وتسمى أليعازر، وتزوج يهودية من سرقسطة. وقد أزعج ذلك الحدث النصارى في الأندلس وغيرها، وزاد من شوكة اليهود عليهم. وخاض بودو صراعاً فكرياً عنيفاً ضد النصارى[4]، وأرسل إلى أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط يطالبه أن يكره النصارى في بلاده على الإسلام أو اليهودية، وأن يعاقب بالموت النصارى الذين يرفضون ذلك[5]. وفي سنة (233هـ=847م) أرسل نصارى الأندلس رسالة إلى إمبراطور فرنسا، وإلى الأساقفة في مملكته يطالبونه، أن يطالب أمير قرطبة بتسليم بودو له[6].

ونرى في توجه بودو إلى الأندلس لإعلان يهوديته، وفي تجرئه على مطالبة الأمير عبد الرحمن الأوسط بتهويد النصارى، وفي المناظرات الفكرية والدينية بينهم وبين اليهود، مؤشراً على علاقة حسنة لليهود بالسلطة، وعلى حرية دينية وفكرية منحتها السلطة الإسلامية في العهد الأموي لليهود.

أحد عشر: ظهرت بين نصارى الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط (206-238 هـ=822-853م) حركة غريبة، حيث قام عدد من الرهبان والنصارى المتحمسين بشتم الإسلام وسب الرسول -محمد صلى الله عليه وسلم - وذلك على أبواب المساجد وفي أوقات الصلاة.

وقد تعرض من يفعل ذلك للجلد أو القتل، لكن ذلك لم يردعهم، واستمروا في ممارساتهم، فأُطلق عليهم

---

(1) المقري، نفح الطيب، م3، ص29.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص61.

(3) BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.485.

(4) لمزيد من التفاصيل ينظر:
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.69-80; BROYDE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.485;
الموسوعة العبرية، م26، ص383.

(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.80.

(6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.80.

"المنتحرون". وكان معظم نصارى الأندلس يرفضون تصرفات هؤلاء المنتحرين ويستنكرونها، وقام عدد من الأساقفة بدعوةٍ من عبد الرحمن الأوسط بعقد مؤتمر في قرطبة سنة (238هـ=852م) لمعالجة هذا الموضوع، وقرروا فيه رفض هذه الأعمال[1]. لكن هذه الأعمال تواصلت في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (238-273هـ=852-886م) فتعامل مع الذين يمارسونها بحزم، وتمكن من القبض على قائد الحركة إيلوغيوس (EULOGIUS) وقتله، وقد أضعف ذلك أتباعه، إلى أن قضي على حركتهم تماماً[2].

وفي أثناء معالجة النصارى المعتدلين لهذا الموضوع، ولموضوعات عقدية أخرى، عقدوا مؤتمراً آخر في قرطبة تحت قيادة سيرفاندو (SERVANDO)، رئيس طائفة النصارى في قرطبة، و هوستجيسيس (HOSTEGESIS) أسقف مالقه، وذلك سنة(249هـ=863م) وقد حضر هذا المؤتمر عدد من علماء المسلمين واليهود[3].

ولاشك أن مشاركة اليهود في مؤتمر كنسي خاص بالنصارى لمعالجة موضوع يهم السلطة الإسلامية، يدل على ثقة هذه السلطة باليهود، ويؤكد على علاقتها الحسنة بهم.

ويعلق آشتور على هذه المشاركة بقوله: "ودارت الدنيا، ففي المؤتمر نفسه الذي شرع في السابق تشريعات مضطهدة لليهود، يجلس الآن فيه في منتصف القرن التاسع الميلادي يهود، ويتخذون قرارات حول صحة التعاليم النصرانية، وما هو مطلوب لرفاهية الكنيسة"[4].

اثني عشر: كان الحكام الأمويون يختارون يهودياً من كل مدينة يوجد فيها اليهود ويوكلونه بجمع الجزية المفروضة على قومه وتسليمها لهم، إذ يروي ابن حيان أنه في سنة (363هـ=973م) وأثناء حكم الخليفة الحكم الثاني (350-366هـ=961-976م) "سُجِّل الحجاج بن متوكل اليهودي على قسامة قومه يهود أليسانة"[5]، وذلك لأنهم الأقدر على جمع الجزية من أبناء جلدتهم، ولمعرفتهم بهم، وبواقع حالهم، وبإمكاناتهم المادية.

وتحمل هذه الإشارة أيضاً دلالة على الثقة التي أولاها الأمويون في الأندلس لليهود، فهم ليسوا بحاجة إلى جباة مسلمين، يتولون هذه المهمة بأنفسهم، ولو لاحظ الأمويون تفريطاً من وكلائهم، أو عدم تجاوب من اليهود الذين تجمع منهم الجزية، لما أوكلوا هذه المهمة لواحد من اليهود.

ثلاثة عشر: اعتمد بعض الخلفاء الأمويين في الأندلس على اليهود في تأدية أعمال ومهمات لصالح الدولة، ومن ذلك قيام الخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (300-350هـ=912-961م) بتقريب يهودي اسمه حسداي بن شبروط. وقد

---

[1] الحجي، التاريخ الأندلسي، ص242-243؛ .ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.81-90

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.87-90.

[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.92.
نقلاً عن: R. AMADOR DE LOS RIOS, HISTORIA SOCIAL POLITICA Y RELIGIOSA DE JUDIOS DE ESPANA Y PORTOGAL (MADRID, 1875-6), VOL.1, P.132;
ينظر: الموسوعة العربية، م26، ص383.

[4] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.91-92.

[5] ابن حيان، المقتبس، تحقيق: عبد الرحمن الحجي، ص149.

بدأ ابن شبروط عمله في بلاط الخليفة طبيباً في حدود سنة (329هـ=940م)، وذلك بعد أن ذاع صيته في قرطبة على إثر اكتشافه طريقة تركيب الدواء الذي صنعه أندروماكوس الكريتي للإمبراطور الروماني نيرون من واحد وستين عنصراً، وصار يستخدم علاجاً في الإمبراطورية الرومانية لأمراض كثيرة، ثم فقدت طريقة تركيبه بمرور الوقت، وأصبح اكتشافها هَمُّ كثير من الأطباء المسلمين وغيرهم، وقد سماه المسلمون "الفاروق"، وكان الرومان يسمونه "الترياق" (THERIACA)، وسماه أطباء اليهود "المخلص"[1]. ويبدو أن معرفة ابن شبروط باللغة اللاتينية[2]هي التي مكنته من التوصل إلى طريقة تركيب هذا الدواء.

ثم وضعه الخليفة الناصر على رأس إدارة مالية، وهي في ما يبدو الإدارة التي تعرف الآن بالجمارك[3]، حيث تحدث عن منصبه في إحدى رسائله إلى ملك الخزر كمسؤول عن الدخل الصادر عن التجارة الأجنبية[4]. وكان هذا المنصب مهماً لأن الأموال التي تجبى من السفن القادمة إلى الأندلس والمغادرة منها، كانت تشكل مصدراً رئيساً لخزينة الدولة[5].

وبالرغم من أهمية العمل الذي كان يؤديه ابن شبروط، إلا أن الناصر لم يمنحه لقب وزير أو أي لقب رسمي. والسبب في ذلك حسب تصوري أنَّ الناصر أراد أن يستفيد من مواهب حسداي ولا سميا من كونه مِلِمَّاً بلغات أجنبية مختلفة، من دون أن يجعل في حكومته وزيراً يهودياً أو موظفاً رسمياً كبيراً يشوّه سمعتها الحسنة، ويعرّضها لانتقادات جمهور المسلمين وفقهائهم[6].

وعندما حدث التقارب بين القسطنطينية وقرطبة، أرسل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (334-348هـ=945-959م) إلى الخليفة الناصر رسائل مع هدايا ثمينة، واشتملت الهدايا على نسخة من الكتاب الإغريقي الخاص بدايو سكوريدس (DIOSCORIDED) عن الأعشاب الطبية، وقد أثار الكتاب اهتمام الخليفة وطبيبه حسداي، ولأنه لم يكن في قرطبة عالم ضليع بالإغريقية، طلب الناصر من قسطنطين السابع عالماً يتقن الإغريقية ليقوم بترجمة الكتاب إلى اللغة اللاتينية، ومنها تمت ترجمته إلى العربية بمساهمة حسداي، وكان هذا الكتاب أساساً لتطور العلوم الطبية في الأندلس[7].

---

[1] صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89، ابن جلجل، سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق: فؤاد سيد، (القاهرة، المعهد الفرنسي، 1955م)، ص23؛ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم، عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، (بيروت، مكتبة الحياة، 1965م)، ص494، 498؛ عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص22-23؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1. P.161-162; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.610.

[2] الكواتي، اليهود في المغرب، ص207؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.610.

[3] أبو رميلة، هشام، نظم الحكم في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، (1400هـ-1980م)، ص140؛ الموسوعة العبرية، م26، ص383.

[4] ASHTOR, SPAIN, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.222;
د. م. دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ترجمة: سهيل زكار، (بيروت، دار الفكر، ط1، 1407هـ=1987م)، ص189.

[5] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.162.

[6] عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص23؛ الموسوعة العبرية، م 26، ص283؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.162.

[7] ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص494؛ ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص23؛
DUBNV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.164-168.
ينظر: ابن خلدون العبر، جـ4، ص142.

وقد ازداد تقدير الخليفة الناصر لدين الله لحسداي، وصار يعتمد عليه في بعض سفاراته إلى الممالك الفرنجية، ويصف ابن حيان إحدى المهمات الدبلوماسية التي كلِّف بها حسداي في سنة (328هـ=939م)، فيقول: "وفيها عقد حسداي بن إسحاق الإسرائيلي الكاتب، السلم مع شنيير بن غيفريد الإفرنجي، صاحب برشلونة وأعمالها، على الشروط التي ارتضاها الناصر لدين الله وحدها، وأشخص حسداي إلى برشلونة لتقريرها مع شنيير، صاحبها، واتفق أن جاء الأسطول المتحرك من مرسى المرية، عقب رجب من هذه السنة مع إبراهيم بن عبد الرحمن الباجي، على مدينة برشلونة، يوم الجمعة، لعشر خلون من شوال، فعرَّفهم حسداي بما عقده من سلم شنيير، صاحبها، واستكفهم عن حربه، فرحل الأسطول عن مرسى برشلونه من يومه. ودعا حسداي عظماء برشلونه إلى طاعة الناصر لدين الله وسلمه، فأجابه جماعة من ملوكهم، منهم أُنْجُة، أحد عظمائهم، ودار قراره... وسلكت قر [ر] كلّة بنت بُرّيل المملّكة على وقومها من الإفرنج، سبيل أنجة هذا في سلم الناصر لدين الله فأرسلت إليه برناط الإسرائيلي، ثقتها بغرائب من طرائف بلدها المستحسنة فقبلها الناصر لدين الله منها، وكافأها بأنفس منها وأكرم رسلها، ثم قدم حسداي بن إسحاق الإسرائيلي على الناصر لدين الله من برشلونة في عقب ذي القعدة منها [سنة 328هـ] بعد أن أحكم ذلك كله، ومعه غدمار رسول شنيير، على الشروط التي اشترطها عليه..." [1].

ثم بعثه الناصر في جمادى الآخرة من سنة (328هـ=941م)، إلى جليقية، لعقد صلح مع رذمير الثاني (318-340هـ=930-951م)، وإطلاق سراح محمد بن هاشم التجيبي المأسور هناك منذ سنتين. وقد نجح حسداي في مهمته التي شارك فيها عدد من الأساقفة النصارى، أرسلهم الناصر في ما بعد بناء على طلب التجيبي[2].

وعن معاهدة الصلح هذه يقول ابن حيان: "وتولى إبرام ذلك وإقامة حدوده حسداي ابن إسحاق الإسرائيلي، المقيم بحضرة رذمير، فتمّ على أصلح الوجوه، وارتفعت به الحرب بين أهل الملتين)[3].

وعندما تعرضت مملكة ليون لهجمات المسلمين المتكررة، بعد وفاة ملك ليون راميرو الثاني (RAMIRO) سنة (339هـ=950م)، قام ملكها الجديد أوردونيو الثالث (ORDONIO) بإرسال مبعوثين إلى قرطبة سنة (344هـ=955م)، مقترحاً على الخليفة الهدنة فوافق الناصر على هذا الاقتراح، وأرسل سنة (345هـ=956م) وفداً إلى أوردونيو الثالث برئاسة محمد بن حسين ومشاركة حسداي بن شبروط، للاتفاق على شروط الهدنة. وانتهت المفاوضات بسرعة، وعاد مبعوثا الخليفة برفقة مبعوثين من الملك النصراني ومعهم مسودة المعاهدة، وكانت الشروط مرضية للخليفة، فتم توقيع المعاهدة، وعاد مبعوثا أوردونيو الثالث إلى بلدهم[4].

ثم قام أمير قشتالة بعقد هدنة مع الخليفة، وقبل أن ينعم النصارى في الممالك النصرانية في شمالي الأندلس بالراحة

---

[1] ابن حيان، المقتبس، جـ5، اعتنى بنشره ب.شالميتا، بالتعاون لضبطه وتحقيقه مع ف. كورنيطي و م.صبح وغيرهما، (مدريد، المعهد الأسباني العربي للثقافة، 1979م)، ص454-455.

[2] كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، ص157.

[3] المقتبس، جـ5، ص467.

[4] ابن عذارى، البيان المغرب، جـ2، ص221؛

ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.176-177.

ينظر: ابن خلدون، ج4، ص143.

والهدوء دب الخلاف بينهم، إذ مات الملك أوردونيو الثالث في ربيع سنة (346هـ=957م)، وخلفه أخوه سانشو الأول (SANCHO) الذي كان ابناً لراميرو الثاني ولكن من زوجته الثانية، وكانت أمه تيريزا (TERESA) أميرة نافار أخت غارسيا ملك نافار[1]. ورفض الملك الجديد لليون الاعتراف بالمعاهدة المعقودة بين الخليفة وأوردونيو الثالث، ولهذا شن المسلمون حملة جديدة على مملكة ليون في سنة (346هـ=957م)[2]. وظهرت معارضة ضد سانشو بين نبلاء ليون، وادعى معارضوه بأنه ليس مؤهلاً للحكم بسبب بدانته المفرطة التي أورثته الغباء، وتآمروا عليه وخلعوه في ربيع سنة (347هـ=958م)[3]. وهرب الأمير المخلوع إلى مدينة بنبلونة حيث تعيش جدته الملكة تودا النافارية[4]. وكانت هذه الملكة مشهورة بسبب حربها مع خلافة قرطبة، وقد عزمت على إعادة حفيدها إلى العرش بمساعدة عدوها السابق الخليفة عبد الرحمن الناصر، وطلبت من قرطبة تقديم المساعدة لسانشو، والدعم العسكري ضد المتآمرين على حفيدها في ليون[5]. وسُرّ الخليفة من هذا الطلب، إذ وجد فيه فرصة لفرض شروطه على تودا، واختار حسداي بن شبروط لنقل شروطه التي يشترطها مقابل تلبية طلباتها، وهي أن تحضر لمقابلة الخليفة، إضافة لاستعدادها للتنازل للمسلمين عن عشرة مدن محصنة على حدود الأندلس. وقد نجح حسداي في مهمته، ووافقت تودا على شروط الخليفة، وجاءت مع حفيدها سانشو إلى قرطبة، وكان معها حاشية كبيرة من النبلاء والكهنة، ووقعت الاتفاقية بين خليفة الأندلس وتودا سنة (347هـ=959م)، وظل سانشو يخضع للعلاج على يد حسداي بن شبروط إلى أن عاد رشيقاً وذكياً مثلما كان قبل مرضه[6].

وفي سنة (348هـ=959م) توجهت قوات عبد الرحمن الناصر إلى ليون، وكان معهم سانشو، وهرب أوردونيو الرابع إلى أشتوريه، وصمدت ليون عاصمة المملكة النصرانية لبعض الوقت، ولكنها سقطت في أيدي المسلمين الذين سلموها إلى سانشو حسب الاتفاق في سنة (349هـ=960م)، وحصل المسلمون على الحصون العشرة[7].

وقد ابتهج يهود قرطبة وعموم الأندلس كثيراً بهذا الحدث، إذ عدوه انتصاراً دبلوماسياً لحسداي[8]. وقد عبر عن مشاعرهم الشاعر اليهودي دونـاش بن لبرط الذي كان يحظى بالرعاية من حسداي، حيث كتب قصيدة بالعبرية يمجد فيها ما

---

(1) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.172.

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.611.

(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.177.
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.611.
ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ4، ص143.

(4) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.611.
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.177.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.611; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.178;
سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ1، ص70، ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ4، ص143.

(6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.178-180.
ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ4، ص143.

(7) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.612; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.180.
ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ4، ص143؛ سالم، قرطبة، حاضرة الخلافة، جـ1، ص70.

(8) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.180; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS VOL.2, P.612.

قام به حسداي[1].

لقد اعتمد الخليفة الناصر على حسداي في مفاوضاته مع ملوك النصارى بسبب حنكته التي يعبر عنها ابن حيان بقوله: "فرمى العلج رذمير بحسداي هذا، وهو واحد العصر، الذي لا يعدل به خادم مَلِك، في الأدب وسعة الحيلة، ولطف المدخل وحسن الولوج"[2].

ولكن الصفة الأهم التي تميز بها حسداي، وجعلت الخليفة يعتمد عليه، ويكلفه بتلك المهمات الدبلوماسية، هي تمكنه من لغات عدة، إذ كان يجيد العبرية والعربية واللاتينية والأسبانية[3]، إضافة إلى الإغريقية التي تعلمها على يد الراهب البيزنطي نيقولا[4]. وتظهر طبيعة المهمات التي أسندها الخليفة لحسداي، صحة ذلك، إذ كان يرسله فقط إلى البلدان الأجنبية، وجعله مسؤولاً عن شؤون التجار الأجانب، وتلك مهمات يتطلب إتقانها إحاطة بلغات أجنبية عدة.

ولولا هذه القدرة اللغوية، لما كُلِّفَ حسداي بمهمات من السهل أن يجد الخليفة بين المسلمين من يقوم بها، فالمسلمون في عهد الناصر لم يكن ينقصهم الجرأة والشجاعة والذكاء والحنكة وغيرها من الصفات التي يجب أن يتحلى بها السفراء[5]. وقد كُلفوا أيضاً بسفارات إلى تلك البلدان ونجحوا في أدائها، وقد لاحظنا في سفارة الناصر إلى أوردونيو الثالث، التي شارك فيها حسداي، أنه جعل فيها محمد بن حسين رئيساً[6]. وقد أظهر يحيى بن الحكم، الملقب بالغزال قدرة فائقة في هذا المجال، وذلك قبل نحو قرن ونصف من عهد الناصر، حيث نجح في عقد هدنة بين الأمويين والفرنجة لمدة ثلاث سنوات، وذلك سنة (197هـ=812م)، أثناء حكم الأمير الحكم الربضي[7]، كما قام بسفارة إلى ملك الروم "فأعجبه حديثه، وخف على قلبه"[8]، وقد نقل المقري عن ابن حيان طرائف تبين ما تحلى به الغزال من خلق وعفة وسرعة بديهة وذكاء وحنكة ومرونة لتحقيق الأهداف التي سافر من أجلها[9].

أربعة عشر: ترك الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداي بن شبروط يستفيد من كونه موظفاً كبيراً مقرباً من حاكم أعظم دولة في ذلك العصر، وذلك في خدمة اليهود خارج الأندلس، إذ كان على اتصال دائم باليهود في عدد من الأقطار، يراسلهم، ويتساءل عن أخبارهم، ويتلقى منهم الرسائل، ويحاول أن يتدخل عند رؤساء وملوك بلدانهم ليحل مشكلاتهم.

فقد وصلته رسالة من يهود جنوب إيطاليا، يشرحون له فيها سوء أوضاعهم تحت

---

[1] ينظر:
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.612; ASHTOR; THE JEWS, VOL.1, P.256, 259;
عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص29-30.

[2] المقتبس، جـ5، ص466.

[3] الكواتي، اليهود في المغرب، ص207 ؛ .DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.610

[4] ينظر: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص494؛ .ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.168-169

[5] ينظر: المقري، نفح الطيب، م2، ص258؛ الكواتي، اليهود في المغرب ص207.

[6] ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ2، ص221.

[7] ينظر: الكواتي، اليهود في المغرب، ص207 ؛ رينو، الفتوحات الإسلامية، ص128-129.

[8] المقري، نفح الطيب، م2، ص258.

[9] م. ن، م2، ص258-259

الحكم البيزنطي[1]. وبالرغم من أن كاتبي الرسالة لم يطلبوا من حسداي أن يفعل لهم شيئاً، إلا أنه انتهز فرصة البعثة التي عزم الخليفة الناصر على إرسالها إلى الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع(347هـ=948م)، وقام بتحميل مبعوثي الخليفة رسالتين. والرسالتان منشورتان بالعبرية، وهي اللغة التي يُعتقد أن ابن شبروط قد كتبهما بها[2].

ويبدو أنه استأذن الخليفة قبل أن يكتبهما، فأذن له على أن يكتب بالعبرية، وباسمه شخصياً حتى لا يفهم الإمبراطور أن الرسائل موجهة إليه باسم الدولة الإسلامية.

وكانت واحدة من الرسالتين موجهة إلى إحدى النبيلات[3]، ويطلب فيها حسداي أن تتصرف بالنيابة عن اليهود، ولصالحهم، ويناشدها بعدم إجبارهم على فعل شيئ ضد رغبتهم، واقترح أن تقوم متلقية الرسالة بوضع اليهود تحت حمايتها، وأن تعين أحد موظفيها للتعامل معهم، وذكر أنه يستطيع أن يفعل الخير للنصارى الساكنين في الأندلس، وأنه في الواقع يفعل ذلك سلفاً[4].

أما الرسالة الأخرى فهي موجهة إلى الإمبراطور قسطنطين السابع، وهي للأسف مشوهة وغير واضحة، ولم يسلم منها إلا عبارات التبجيل مثل" الملك العظيم الممجد في علاه"، إضافة إلى جملة يبين فيها للإمبراطور أن الرسالة التي أرسلها للخليفة قد أسعدته كثيراً[5].

وخلال عهد قسطنطين السابع تم تخفيف الضغط على اليهود، بحيث كان بوسعهم ممارسة طقوس دينهم سراً، وهذا يعني أن رسائل حسداي قد حققت بعض أهدافها[6].

وعندما انهارت مدرستي سورا(*) وبومبيديتا(**) اليهوديتين في العراق، وانتقل المركز الثقافي والديني لليهود إلى

---

(1) J. MANN, TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY, VOL.1, P.23-24; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.183-184.

(2) J. MANN, TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY AND LITERATURE. VOL.1, P.12-13; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.188.

(3) يعتقد عدد من المؤرخين أن هذه المرأة هي هيلينا (HELENA) بنت رومانس الإمبراطور البيزنطي السابق، وزوجة الإمبراطور قسطنطين السابع، وكانت مهتمة بالشؤون الإدارية للإمبراطورية.
ينظر:مقالة " أسبانيا " الموسوعة العبرية ,م26 ,ص383 ؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.190;
RAMOND P.SCHEINDLIN, THE JEWS OF MOSLIM SPAIN, P.189.

(4) J. MANN, TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY AND LITERATURE, VOL.1P.12-13; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.188-189;
ينظر: الموسوعة العبرية، م 26 ,ص383؛
RAMOND P.SCHEINDLIN, THE JEWS IN MOSLIM SPAIN, P.189.

(5) J. MANN, TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY AND LITERATURE, VOL.1, P.12-13; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.190.

(6) ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.190.

(*) مدرسة سورا: تأسست هذه المدرسة (سنة 219) ق.م في مدينة سورا، التي تقع في بابل، بالقرب من نهر الفرات، وكان أشهر أساتذتها في العصر الإسلامي هو الجاؤون سعديا (ت:331هـ=942م)، وقد ضعفت هذه المدرسة ثم أغلقت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.
ينظر: ISAAC LANDMAN, SURA, THE UNIVERSAL JEWISH ENCYCOLPEDIA, (KTAV PUPLISHING HOUSE, INC, NEW YORK, 1969), VOL.10, P.104-105.

الأندلس، توالت الرسائل من رؤساء وأحبار يهود العراق إلى حسداي بن شبروط، يستغيثون به، ويتوسلون إليه بطريقة مهينة، لكي يرسل إليهم دعماً مادياً يسد حاجة المعلمين في هاتين المدرستين، إذ أصابهم الفقر والجوع بعد انقطاع المعونات التي ترسل إليهم من يهود الأندلس والعالم[1].

ولم يقصِّر حسداي في إرسال الأموال إلى أحبار العراق، فجازاه أحبار مدرسة بومبيديتا بمنحه لقب ريش كالا (RESH KALLA) أي رأس العرش، وهو لقب عظيم عندهم لا يمنحونه إلا لصاحب فضل كبير وعلم غزير[2].

وأرى في سماح الناصر لحسداي بالاستفادة من منصبه في حدمة اليهود خارج الأندلس دليلا ً واضحا ً على التسامح الذي لقيه يهود الأندلس من السلطة الإسلامية في العهد الأموي.

كما أفاد حسداي بن شبروط من موقعه كمسؤول عن التجارة الأجنبية، ومن مكانته في بلاط الخليفة، في جمع معلومات عن اليهود في البلدان الأخرى، وفي التواصل معهم. ومثال ذلك يهود الخزر الذين علم حسداي من خلال التجار عن وجود مملكة لهم[3]، فأخذ يبحث ويتقصى عن أخبار هذه المملكة، ويسأل مبعوثي الملوك إلى قرطبة، حتى تمكن من جمع معلومات مهمة عنها[4]، وقام بمراسلة ملكها[5]، وتلقى منه رسالةً تعرِّف بمملكة الخزر، وكيف تهود كثير من سكانها[6].

أربعة عشر: أتاحت السلطة الإسلامية في الأندلس لليهود وخصوصاً في عهد عبد الرحمن الناصر وخلفائه، أن يشاركوا في النهضة العلمية والفكرية التي شهدتها الأندلس، فبعد أن كان اهتمامهم مقتصراً على الجوانب الثقافية والدينية فقط، صارت لهم اهتمامات لغوية وأدبية وفكرية[7].

وقد أسهم حسداي بن شبروط بدور كبير في تشجيع اليهود وجذبهم إلى سفينة الفكر والأدب التي يقودها المسلمون،

[**] مدرسة بومبيديتا: تأسست نحو عام (260 ق.م) في مدينة بومبيديتا الواقعة في بابل، بالقرب من نهر الفرات، وهي متخصصة في الدراسات اليهودية الدينية، واستمرت إلى العصر الإسلامي، وكان آخر رؤساء هذه المدرسة هما الجاؤون شعريرا، ومن بعده ابنه حي، وقد أغلقت المدرسة بوفاة حي (سنة 340هـ=1038م).
ينظر:
ISAAC LANDMAN, PUMBEDITHA, THE UNIVERSAL JEWISH ENCYCOLPEDIA, VOL.9, P.35.

[1] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.237-239.

[2] IBID, VOL.1, P.240.

[3] د. م. دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص189؛ ينظر: الإصطخري، المسالك والممالك، ص129-130.

[4] دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص189؛ ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.198-199. DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.613-614;

[5] دنلوب، تاريخ يهود الخزر، ص189؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.614; ASHTOR, THE JEWS VOL.1, P.199.
نشر J.MANN النص الكامل لرسالة حسداي إلى ملك الخزر.
ينظر: J. MANN, TEXTS AND STUDIES IN JEWISH HISTORY AND LITERATURE, VOL.1, P.22.

[6] ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.210, 217.
عن يهود الخزر. ينظر: الإصطخري، المسالك والممالك، ص128-132؛ دنلوب، تاريخ يهود الخزر.

[7] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.613;ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.243;
ينظر: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89؛ ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء، ص498.

معتمداً في ذلك على علاقته الحسنة بالسلطة في عهدي الناصر والحكم الثاني (المستنصر بالله)، فقد جعله الناصر رئيساً لكل يهود الأندلس، وظل كذلك إلى عهد الخليفة المستنصر بالله، ومكنته الدولة من جمع ثروة كبيرة من خلال وظيفته ومهماته الدبلوماسية، فاستطاع أن يوظف ما أعطي له من جاه ومال في دعم
الثقافة اليهودية، حيث أخذ يقلد الأمراء المسلمين الذين دعوا العلماء والأدباء إلى مجالسهم، وجعلوها منتديات للعلم والفكر والأدب[1].

لقد تدفق المبرزون من المثقفين اليهود إلى مجلس حسداي، فوجدوا لديه التشجيع المادي والمعنوي، وقد أثر ذلك بمرور الوقت على الثقافة اليهودية، التي نمت وتطورت، ومهدت لظهور العصر الذي سماه اليهود العصر الذهبي للثقافة اليهودية[2].

خمسة عشر: استمرت العلاقة الحسنة بين اليهود والسلطة بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وظلت كذلك حتى انقضاء عصر الخلافة الأموية في الأندلس. فقد ظل حسداي يشغل في عهد المستنصر (350-360هـ=961-976م) المنصب الذي شغله في عهد الناصر، وظل يقوم بالمهمات الدبلوماسية نفسها، إلى أن توفي في نهاية عهد المستنصر[3].

وقام المستنصر باستخدام يهودي آخر، هو إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي، وقد كلفه بسفارات عدة، أهمها تلك التي اتجه فيها نحو روما سنة (350هـ=961م) لمقابلة البابا يوحنا الثاني عشر. وأرسله في سفارتين إلى الإمبراطور الألماني أوتو الأول. الأولى سنة (351هـ=965م)، والثانية سنة (362هـ=972م)[4].
كما كلفه المستنصر برحلة جغرافية إلى أوربا الوسطى والشرقية، لجمع معلومات عن تلك البلاد وسكانها[5]، وقد أدى هذه

---

(1) الموسوعة العبرية، م26، ص380-382، 398؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.613;
H. BEINART, GORDOBA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA VOL.5, P.963.

(2) H. BEINART, GRNADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.963; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.243؛ الموسوعة اليهودية، ص286.

(3) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص89؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص498؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.613.

(4) الكواتي، اليهود في المغرب، ص208.

(5) ELI DAVIS, TORTOSA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.1268.
تعددت الآراء حول شخصية إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي. فقال حسين مؤنس: "هو تاجر ممن كانوا يعملون في جلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس". مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ص76. وقال الحجي: "لكن الذي يظهر أن الطرطوشي لم يكن تاجرًا بل كان رحالة، وأنّ مقابلته لأوتو الأول أو لغيره لم تكن تحمل أي طبيعة رسمية أو شبه رسمية، بل كانت مقابلات شخصية بدافع من اهتمامه الذاتي لمثل هذه المقابلات"، البكري، المسالك والممالك" الجزء الخاص بالأندلس"، ص172(هامش المحقق).
وقال بعض المستشرقين: "إن الطرطوشي كان قد عين رسمياً سفيراً للخليفة القرطبي عبد الرحمن الناصر، أو لابنه الحكم المستنصر لدى الامبرطور الألماني أوتو الأول بصحبة رئيس الوفد ربيع بن زيد الأسقف القرطبي(ريثموندو، RECEMUNDO). البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس"، ص172(هامش المحقق).
وسواء كان الطرطوشي تاجراً أو رحالةً أو الاثنين معاً فالذي يهمنا هو هل كان اتصاله بالإمبرطور أوتو وكتابته التقارير عن رحلاته مبادرة ذاتية منه أو بتكليف من المستنصر. والذي أراه أن ذلك قد تم بتكليف من المستنصر، وقد استنتجت ذلك من خلال المعلومات التي نقلها الطرطوشي عن أوتو، والتي تدل على مجالسة الطرطوشي لهذا الإمبرطور. إضافة إلى قول الإمبرطور له ذات مرة: "إني أريد أن أرسل إلى أمير المؤمنين بالأندلس قومساً حاذقاً بهدية، وإن من أعظم حوائجي عنده وأجل مطالبي قبله" جثمان أحد شهداء النصارى في لورقة. العذري، ترصيع الأخبار، ص7؛ قارن: الحميري، الروض، "صفة جزيرة الأندلس"،

المهمة بنجاح، وعاد بمعلومات قيمة، اعتمد عليها البكري وغيره عندما كتبوا عن تلك البلاد[1].

وفي أواخر عصر الخلافة، قام المنصور بن أبي عامر بتعيين صانع الحرير اليهودي يعقوب بن جاو رئيساً للطوائف اليهودية في الأندلس، ومنحه السلطات نفسها التي منحت لحسداي بن شبروط في عهد الناصر[2].

وهناك إشارة إلى قيام يهودي بتأليف كتاب في تربيب العسل، وإهدائه للمنصور بن أبي عامر[3]. وهي تدل على أن مثقفي اليهود في ذلك الوقت كانوا يحرصون على التقرب من السلطة.

ص171. فلا يمكن لامبرطور مثل أوتو أن ينبسط لتاجر أو رحالة، فيجالسه أو يحدثه عما يجول في خاطره ويزوده بمعلومات مهمة، ويذكر أمامه المستنصر بلقب أمير المؤمنين، مع أن الطرطوشي يهودياً وليس مسلماً دون أن يكون سفيراً من المستنصر إليه ومكلفاً أيضاً بجمع معلومات عن تلك البلاد.

(1) البكري، المسالك والممالك، "الجزء الخاص بالأندلس"، ص178-179؛ العذري، ترصيع الأخبار، ص7-8؛
ELI DAVIS, TORTOSA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.1268.

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.621; ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.377.

(3) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص551-552.

المبحث الثالث

اليهود والسلطة في عصر الطوائف

شهدت الأندلس بعد سنة (399هـ=1008م) صراعاً عنيفاً على السلطة، أدى إلى انحلال الخلافة، ونشوء دويلات متنافسة يحكمها ملوك ينتمون إلى أصول عربية أو بربرية أو صقلبية، وقد أطلق عليهم ملوك الطوائف[1].

وتضرر من هذا الصراع ولا سيما في بداياته الأولى جميع سكان الأندلس بمن فيهم اليهود، وكان سكان قرطبة هم الأكثر تضرراً، إذ صارت مدينتهم ساحة حرب لأولئك المتنافسين على الحكم، وتعرضت مرات عدة لسيطرة البربر، ولسيطرة النصارى الأسبان الذين استعان بهم أهل قرطبة لقتال البربر، فدخلت جيوش الأسبان قرطبة وعاثت فيها فساداً، وكذلك فعل البربر عندما سيطروا عليها[2].

وفي رسالة بعث بها أحد يهود قرطبة إلى تاجر يهودي يدعى أبو الفرج جوزيف بن يعقوب بن عوقل، ووجدت في جنيزة القاهرة، يتحدث ذلك اليهودي عن الدمار والجوع الذي حل بجميع سكان قرطبة، أثناء الحصار الذي فرضه عليهم منافسون على الحكم من شمال أفريقيا سنة (401هـ=1010م)، واستمر نحو ثلاث سنوات[3]، ومن الطريف أن نذكر "أن أحد وزراء المنصور كان يرى في منامه يهودياً يمشي في أزقة الزاهرة بخرجه على عنقه وهو ينادي خرّوبش خرّوبش، فسأل المعبر عن ذلك، فأخبره باقتراب خرابها"[4].

لقد أدت هذه الحروب إلى هجرة كثير من يهود قرطبة وغيرها من مناطق الأندلس التي امتد إليها الصراع[5]. ويذكر كاتب يهودي عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أن العديد من اليهود القرطبيين هاجروا إلى طليطلة وإلى سرقسطة، وأنه حتى في عصره كان نسل أولئك المهاجرين يشكلون في المدن التي هاجروا إليها طوائف منفصلة خاصة بهم[6].

وعرف من مهاجري قرطبة عدد من المثقفين اليهود، منهم الشاعران إسحاق بن خلفون، وأبو زكريا حنيجة، اللذان هاجرا إلى طليطلة[7].

وقد أصاب التشتت كثيرا ً من المهاجرين، بابتعادهم عن أسرهم وعائلاتهم، وقد عبر أحد الشعراء المهاجرين عما حل به بعد هجرته بقوله: إن الزمن قد جعله وحيدا ً. كما عبر عن معاناته في رحلته الطويلة وهو يبحث عن مكان آمن، بقوله:

---

(1) ينظر تفاصيل ذلك عند: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص1-314؛ ابن خلدون، العبر، جـ4، ص149-155.

(2) ينظر: ابن خلدون، العبر، جـ4، ص151؛ ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.20

(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.20.

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص65.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P, 622-623 ; ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.28-29.

(6) نقلاً عن: ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.29.

(7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.29.

لقد قست وجه الأرض بقدمي كما لو أنهما مسطرتي قياس[1].

وتكشف قوائم الجنيزة الخاصة بتوزيع الصدقات من قبل يهود مصر عن وصول عدد من يهود الأندلس إليها خلال تلك الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة في الأندلس، إذ تحتوي هذه القوائم على إشارات مثل "الشاب الأندلسي"، أو "اليتيم الأندلسي"، أو "الرجل القادم من الأندلس"[2].

وكان للإمارات والممالك الأسبانية نصيب وافر من المهاجرين اليهود، الذين وجدوا فيها فرصاً كثيرة للكسب، حيث كانت تفتقر إلى الحرفيين الماهرين، والتجار القادرين على استيراد المنتجات المصنعة من الأندلس وغيرها من الدول الإسلامية[3].

ويشير العديد من الوثائق الأسبانية التي تعود إلى أواخر القرن الخامس الهجري/أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى يهود أندلسيين استقروا في تلك الإمارات، وملكوا المزارع والعقارات، وإلى أن عدداً منهم قد عمل في بلاط ملك نافار سانشو المايور SANCHO AL MAYOR (395-427هـ=1004-1035م)[4]. وذكرت بعض عقود البيع المحررة في مملكة ليون في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أسماء عربية ليهود تدل على أنهم مهاجرون جدد، أو أبناء مهاجرين من الأندلس[5].

لقد دفع تيار الهجرة اليهودية الذي خرج من قرطبة، بشاب يهودي يدعى صاموئيل بن جوزيف هاليفي (إسماعيل بن يوسف بن نغدله) إلى مالقه، فوصلها سنة (404هـ=1013م)[6]، وكان لهذا الشاب أثر كبير في حياة يهود الأندلس في عصر الطوائف، وكذلك على الصراع بين دول الطوائف في عصره.

وقد ولد إسماعيل بن نغدله في قرطبة في ربيع سنة (383هـ=993م)، وكان أبوه قد هاجر إليها من ماردة. وتلقى ابن نغدله تعليمه التلمودي في قرطبة بمدرسة الحبر حنوخ بن موسى، ودرس النحو العبري على يد كبير النحويين اليهود في عصره يهودا حيوج[7]، وتمكن من الأدب العبري والعربي، وأصبح قادراً على نظم الشعر بالعبرية والعربية، كما تضلع من علم الفلك والهندسة والمنطق، وقرأ القرآن الكريم وعدداً من كتب الفقهاء المسلمين، وَأَلَمَّ ببعض دراسات النصارى عن

---

(1) IBID, VOL.2, P.30.

(2) IBID, VOL.2, P.30.

(3) ينظر: علي أحمد، "اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى"، مقالة في مجلة: آفاق الثقافة والتراث، (دولة الإمارات، السنة الخامسة، ع17، محرم-1418هـ-مايو1997م)، ص72؛
IBID, VOL.2, P.31.

(4) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.30-31.

(5) IBID, VOL.2, P.33.

(6) عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص39؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.623, 625;
ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.97-98.

(7) عبد المجيد، اليهود في الندلس، ص39؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.1, P.391; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.623.

الإنجيل[1].

استقر إسماعيل في مالقه، واكتسب رزقه من محلٍ صغير كان يبيع فيه التوابل، وقد طلبت منه جارية أن يكتب لها خطاباً ترفعه إلى أمير غرناطة حبوس بن ماكسن، فكتبه لها وعندما وصل الخطاب إلى وزير حبوس أبي العباس بن العريف، أعجب بالخط والأسلوب الذي كتب به، وسأل عن كاتبه، وعرف أنه إسماعيل، وأن دكانه يقع بالقرب من البيت الذي كانت عائلة الوزير تسكن فيه. قابل الوزير أبو العباس إسماعيل، فازداد به إعجاباً، وعرض عليه أن يعمل مساعداً له في خدمة أمير غرناطة حبوس، فوافق إسماعيل ورحل معه إلى غرناطة، حيث عينه الوزير جابياً لأموال الدولة.

وقد حقق إسماعيل نجاحاً في جباية الأموال، وكسب ثقة الوزير، وصار بإمكانه تعيين موظفين يساعدونه في مهمته[2]. وعندما علم باتهام يهود مالقه لقاضيهم الحبر يهودا، ونشوب شجارات بينهم نتيجة لذلك، قام بدعوته للعمل معه في جباية الأموال لدولة غرناطة، فجاء يهودا وأولاده وعملوا مع إسماعيل في هذه المهنة[3].

جنى ابن نغدله أموالاً كثيرة من هذه الوظيفة، لكنه كسب معها كره كثير من يهود غرناطة، الذين وجدوه متسلطاً، يأخذ منهم فوق ما يطيقون في سبيل أن يظهر قدراته للمسؤولين، ولكي يبقي لنفسه جزءاً من هذه الأموال. كما كرهوه أيضاً لأنهم رأوا أن يهودياً من أهل غرناطة أولى من شخص غريب عنهم بهذه الوظيفة، ولأنه عين معه لجباية الأموال يهوداً غرباء عن غرناطة.

وقرر يهود غرناطة أن يضعوا حداً لوجود إسماعيل في مهنته المرهقة والمهينة لهم، فكتبوا فيه تقارير عدة، كشفوا فيها كثيراً من تجاوزاته وطرقه غير المشروعة لتحقيق الغنى الفاحش الذي وصل إليه، ورفعوا هذه التقارير إلى شخصيات متنفذة في حكومة غرناطة. وقد أثبت التحقيق مع إسماعيل صحة ما جاء في التقارير، فتم اعتقاله وأدخل السجن، سنة (411هـ=1020م). وفي الوقت نفسه قام يهود غرناطة باستئجار أشخاص قتلوا الحبر يهودا وابن أخيه، ثم أطلق سراح إسماعيل بعد مدة قصيرة، ولكن فرضت عليه غرامة كبيرة، وجرد من منصبه. وقد تلقى على إثر ذلك رسالة شعرية ونثرية من صديقه إسحاق بن حلفون، يواسيه فيها[4].

ظل إسماعيل في غرناطة بعد خروجه من السجن يعيش على المال الكثير الذي تبقى معه بعد دفع الغرامة، ويأمل ويحاول أن يعيده الوزير إلى وظيفته، وقد تحقق أمله، إذ أعاده الوزير إلى وظيفته، وظل يرفعه إلى أن جعله في سنة (418هـ=1027م) مسؤولاً عن جمع الجزية من كل اليهود في إمارة غرناطة[5].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص264-265؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ص438-439؛
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.623.

(2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.52, 56-57;
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.622-623;
قارن: عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص39-40.

(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.58.

(4) IBID, VOL.2, P.59.

(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.61.

توفي الوزير أبو العباس فعين حبوس ولده الأكبر مكانه، ولم يكن الولد مهتماً بوظيفته كأبيه. واستغل إسماعيل ذلك وصار يقابل حبوس نيابة عنه، ويُظهر بدهاء خبرته وقدراته، إلى أن أصدر حبوس أمراً بتعيين إسماعيل وزيراً للمالية. فشغل هذا المنصب في أوائل العقد الثالث من القرن الحادي عشر الميلادي، وبذلك أصبح إسماعيل بن نغدله أول يهودي في الأندلس يتقلد منصب الوزارة[1].

وقد تحدثت المصادر الإسلامية عن إسماعيل بعد أن أصبح وزيراً، وذكرته باسمه العربي الذي عرف به بين المسلمين، وكان من عادة اليهود والنصارى في الأندلس أن يحملوا اسماً عربياً إضافة إلى اسمهم الذي يعرفون به بين قومهم[2].

وقد اختلفت هذه المصادر في ضبط اسمه فالشنتريني يقول عنه: "إسماعيل بن النغريلي"[3]، وصاعد الأندلسي يقول: "إسماعيل بن الغزال"[4]. وابن سعيد الأندلسي يقول:"إسماعيل بن نغرلة "[5]، وابن عذارى يقول: "إسماعيل بن نغزالة"[6]، وابن الخطيب يقول: "إسماعيل بن نغرالة"[7] و ابن خلدون يقول:"إسماعيل بن نغزلة"[8]، والمقري يقول: "إسماعيل بن نغدلة"[9].

والظاهر أن عدم إحاطة معظم المؤرخين المسلمين بأصل ومعنى التسمية في اللغة العبرية قد أسهم في وقوعهم في هذا الخطأ. وأصل التسمية في رأيي يعود إلى اللقب الذي أطلقه إسماعيل على نفسه، وهو ناغيد (   ) والكلمة عبرية تعني حاكم، أو آمر، أو قائد، أو أمير[10].

وهذا يعني أن المقري كان الأقرب إلى التسمية الصحيحة عندما نسب إسماعيل إلى لقب "ناغيد"، فقال: "ابن نغدله"[11]. وقد أشار الشنتريني إلى هذا اللقب بالرغم من عدم توفقه في ضبط الاسم عندما سماه ابن النغريلي، حيث يقول عنه: "وتسمى من خططهم الشرعية بالناغيد" معناه المدبر بالعربية، خطة تحاماها قدماؤهم، وتطأطأ عنها قديماً زعماؤهم، اجترأ هو عليها"[12]. وفي ذلك يقول إحسان عباس: "فإذا كان من صلة بين الاسم وبين اللقب فالأقرب أن الاسم هو "الناغيدلي" أو الناغيدله".

---

[1] الأمير عبد الله، التبيان، ص30-31؛
IBID, VOL.2, P.64-65; H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA, JUDAICA VOL.7, P.852.

[2] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.145.

[3] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص761-764.

[4] طبقات الأمم، ص90.

[5] المغرب في حلى المغرب، ص132-133.

[6] البيان المغرب، جـ3، ص261-264.

[7] أعمال الأعلام، ق2، ص230.

[8] العبر، جـ4، ص160-161.

[9] نفح الطيب، م4، ص422.

[10] الكلية العسكرية، قاموس التحرير العبري العربي (بغداد، ط1، 1973م)، ص529.

[11] نفح الطيب، م4، ص322.

[12] الذخيرة، ق1، م2، ص767.

وأرى أن إسماعيل كان يُعرف بإسماعيل الناغيد، أي إسماعيل الحاكم أو الأمير، وأن ابنه يوسف الذي خلفه بعد موته، وصار وزيراً مثله، هو الذي سُمّي ابن الناغيد، ولكن القرابة بينهما، والمنصب نفسه الذي شغلاه لباديس، أديا إلى هذا الخلط، فعرف الاثنان باسم ابن الناغيد.

وعند التأمل في كتابة المؤرخين المسلمين للقلب هذين اليهوديين نجد أنهم يختلفون في رسم المقطع الأول منه. ويبدو لي أن التصحيف الناتج عن التقارب بين كتابة حرفي الدال والراء، والسكون والنقطة، قد تسبب أيضاً في وقوع بعض المؤرخين في الخطأ وهم ينقلون عن كتب غيرهم، فقالوا إنه ابن نغزاله أو نغراله أو نغرِلّه أو نغزله أو الغزال أو النغريلي، وجعلهم يبتعدون قليلاً عن اللقب الصحيح الذي نرجح أنه ابن نغدله أو ابن نغدال، وذلك لقرب هاتين التسميتين من الأصل العبري للكلمة، كما أشرنا سابقاً، ولأن إضافة اللام والهاء أو الألف واللام إلى الاسم صيغتان تستخدمان في اللغة العبرية للتدليل والتصغير، فهم يقولون لمن اسمه "موشي" "موشله"، وهكذا. وذلك كقولنا في العربية "عُمير" تصغيراً وتدليلاً لمن اسمه "عمر"[1]. وقد مرت بنا رواية الضبي التي يتحدث فيها عن اليهودي وزير صاحب المرية، الذي سمعه أحد الفقهاء وهو يقول لصبي مسلم اسمه محمد، وكان يخدم اليهودي في حمام عام للمسلمين: يا محمدال، فغضب الفقيه، وقتل اليهودي، لاعتقاده أن اليهودي يتعمد تصغير اسم الصبي محمد إهانةً للرسول صلى الله عليه وسلم[2].

وتجمع المصادر الإسلامية على المكانة الرفيعة التي بلغها إسماعيل في عهد حبوس، وعلى أنه كان وزيراً مفوضاً متصرفاً في شؤون الدولة، وليس مجرد وزير تنفيذي، أو كاتب يحمل لقب وزير فقط، إذ يقول ابن عذاري: "وقد أصبح هذا اليهودي لحبوس على وزرائه، وكتابته، وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة"[3]. ويقول ابن خلدون: "واستولى على سلطانه كاتبه وكاتب أبيه إسماعيل بن نغزلة[4]، ويتحدث الشنتريني عن سلطته في عهد حبوس فيقول:"قد نصبه مكانه من السلطان غيظاً للأحرار"[5]. ويقول في موضع آخر: "وأما ما بلغ من المنزلة عند صاحبه وغلبته عليه فما لا شئ فوقه"[6].

ولم يُقَدّر إسماعيل مشاعر المسلمين الذين رفعوه إلى هذا المنصب الكبير، بل تكبر عليهم وتطاول على دينهم ومقدساتهم، إذ يروي الشنتريني شيئا من تجاوزاته فيقول: "ألف كتاباً في الرد على الفقيه أبي محمد بن حزم، المتقدم الذكر، وجاهر بالكلام، في الطعن على ملة الإسلام، فما دفع عن ذلك بتأنيب، ولا استطيع تغييره عليه إلا بالقلوب"[7]. ويروي ابن سعيد أنَّ إسماعيل بن نغدله استهزأ بالمسلمين، "وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يغنى بها.

---

[1] قدم لي هذه المعلومة اللغوية مختصّ باللغة العبرية، رجعت إليه وأنا أحقق في هذه المسألة، وقد ذكر إحسان عباس أن "له" أو "لي" الموجودة في الاسم صيغة تصغير لاتينية. ينظر: ابن حزم، الرد على ابن النغريله، ص9 (هامش المحقق).

[2] الضبي، بغية الملتمس، ص345-346.

سوف أطلق في هذه الرسالة على هذا الوزير اليهودي اسم إسماعيل بن نغدله، وعلى ابنه اسم يوسف بن إسماعيل، وفي حالة نقل النصوص عن المصادر الإسلامية فسوف ألتزم بالاسم مثلما ورد في النص.

[3] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص264.

[4] العبر، جـ4، ص160-161.

[5] الذخيرة، ق1، م2، ص766.

[6] م. ن، ق1، م2، ص767.

[7] م. ن، ق1، م2، ص766.

ومن شعره الذي نظم فيه القرآن قوله:

نقشت في الخد سطراً　　　من كتاب الله موزون

لن تنالوا البر حتى　　　تنفقوا مما تحبون"[1]

كما لاحق الفقهاء واضطهدهم، فاضطروا للهرب من غرناطة[2]. ومن هؤلاء الفقهاء محمد بن سعيد بن عمر ذي النون الثعلبي الإلبيري الذي رحل إلى طليطلة فراراً بنفسه ودينه[3].

وبسبب سلطته، وسطوته، وإغراءاته، صار بعض ضعفاء وجبناء المسلمين الذين لا يخلو منهم زمان ينافقونه "حتى كان يغسل يده من القبل، وَيُتَمَدَّحُ بالطعنِ على المِلل"[4].

ومن أولئك المنافقين لإسماعيل بن نغدله، ابن خيرة القرطبي المشهور بالمنفتل الذي مدحه في قصائد عدة منها قوله:

قرن الفضائل والفواضل　　　فشأى الأواخر والأوائل[5]

وقوله في قصيدة أخرى يمدح فيها إسماعيل وذوي المناصب من يهود غرناطة:

بدور ولكنا أمنّا سرارها　　　بحور ولكن لا نرى لها براً[6]

ويعقب الشنتريني على هذه الأبيات، بعد أن يوردها بقوله، "وأبعد الله المنفتل في ما نظم فيه وفصل، وقبحه وقبح ما أمَّل"[7].

ويورد أيضاً أبياتاً لابن خيرة من قصيدة أخرى، ويعلق عليها قبل أن يذكرها بقوله: "وله في هذه القصيدة من الغلو في القول، مانبرأ منه إلى ذي القوة والحول"[8].

ومن هذه الأبيات:

ومن يك موسى منهمُ ثم صنوه　　　فقل فيه ماشئت لن تبلغ العُشرا

فكم لهم في الأرض من آية تُرى　　　وكم لهم في الناس من نعمة تترى[9]

ومن منافقي الوزير اليهودي إسماعيل أيضاً ابن الفراء الأخفش بن ميمون، الذي يقول عنه المقري: إنه "من حصن القبذاق، من أعمال قلعة بني سعيد، تأدب في قرطبة، ثم عاد إلى حضرة غرناطة، واعتكف بها على مدح وزيرها اليهودي،

---

[1] المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص114، ترجمة رقم: 426.
[2] م. ن، جـ2، ص132-133، ترجمة رقم: 444؛ خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص132.
[3] خلاف، تاريخ القضاء في الأندلس، ص132.
[4] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص766.
[5] م.ن، ق1، م2، ص762-763.
[6] م.ن، ق1، م2، ص764.
[7] م. ن، ق1، م2، ص764.
[8] م. ن، ق1، م2، ص765.
[9] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص765.

وقال في مدحه:

صابح محياه تلق النجح في الأمل   وانظر بناديه حسن الشمس في الحمل"[1]

وقال أيضاً:

أهوى الذي تيمني حبه   ومادرى أني أهواه[2]

ولم يسلم من ظلم إسماعيل بن نغدله حتى اليهود، إذ يقول الشنتريني: "واليهود مع ذلك تتشاءم باسمه، وتتظلم من جور حكمه، على ما كان قد رضخ لهم من الحطام، ووطأ لهم من مراكب الأمور العظام، وهو مع ذلك متماد في غلوائه، غافل عن عادة الله في نظرائه، فغصب يهود أحكامها، وذلل أعلامها"[3]. وقد وصفه الوزير القرطبي إبراهيم بن محمد السقاء، المعاصر له بقوله: "لا بأس بإسماعيل لولا أنه نسي اليهودية"[4].

وتذكر المصادر اليهودية أنه كان لإسماعيل معارضين في غرناطة، وقد هربوا منها عندما حصل على منصبه الكبير فيها[5].

كما أدى تعيين إسماعيل وزيراً في حكومة حبوس بغرناطة، ومجاهرته بالعداء للإسلام، وتكبره على المسلمين، وإصرار حبوس وولده باديس من بعده على بقاء إسماعيل في منصبه، إلى خسارة غرناطة لأكبر وأهم دولة محالفة لها، وهي دولة المرية القوية، التي تسيطر على كل الأقاليم الساحلية في جنوب شرق الأندلس، وإلى تورطها معها، ومع غيرها من دول الطوائف المجاورة في حروب عدة أرهقتها حكومة، وجيشاً، وسكاناً[6].

كان وزير المرية أبو جعفر أحمد بن عباس أشد المعارضين في دولة المرية لوجود إسماعيل في حكومة غرناطة، وقام هذا الوزير الذي يعود بنسبه إلى الأنصار، بتوجيه رسالة خطية إلى حبوس يطلب منه فيها طرد وزيره اليهودي، كما بعث برسالة أخرى إلى رؤساء قبيلة صنهاجة التي ينتمي إليها حبوس، يبين لهم فيها أنهم يخالفون أوامر الله ورسوله بتركهم اليهودي في منصبه. وعلى الرغم من دعوته إلى إبعاد جميع اليهود عن وظائف الدولة، إلا أنه ركز في رسالته على إسماعيل، مذكراً بأنه أصل الشر[7].

لم يستجب حبوس ولا رؤساء صنهاجة لمطلب وزير المرية أبي جعفر، فقام الأخير بإقناع ملك المرية الصقلبي زهير، بإلغاء معاهدة الدفاع المشترك مع غرناطة، فألغيت المعاهدة التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لغرناطة، الإمارة

---

(1) نفح الطيب، م3، ص387-388.
(2) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص182، ترجمة رقم: 473.
(3) الذخيرة، ق1، م2، ص767.
(4) م. ن ق1، م2، ص767، 963.
(5) H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.
(6) ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص166، 167؛
ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.76.
(7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.70-71.

الصغيرة التي تتعرض لأطماع الإمارات المجاورة لها[1].

كما وجه وزيرالمرية ضربة أخرى لحبوس، عندما دفع زهيراً حاكم المرية لعقد معاهدة صداقة مع حاكم قرمونة (CARMONA) محمد بن عبد الله، الذي يعود بنسبه إلى قبيلة زناته المنافسة لصنهاجة[2].

ترى ما هي الصفات التي تميز بها إسماعيل، فجعلت حبوس وقبيلته يتمسكون به بالرغم من إهانته لدينهم، وتعرُّضِ دولتهم لمقاطعة حلفائها، ولحروب عدة بسببه؟

يجيب الأمير عبد الله بن بلقين حفيد حبوس عن هذا التساؤل فيقول: "وكان في اليهودي من الكيس والمداراة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه، والقوم الذين يرمونهم، فاستعمله لذلك استيحاشاً من غيره، ولما كان يرى من طلب بني عمه، ولأن هذا اليهودي ذمي، لا تشره نفسه إلى ولاية، ولا هو أندلسي، فيتقي منه إدخال داخلة مع غير جنسه من السلاطين، ولاحتياجه إلى الأموال التي يطبي بها بني عمه ويحاول بها أمر الملك، لم يكن بد من مثله أن يجمع له من الأموال ما يدرك معها الآمال. ولم يكن له تسلط على مسلم في حق ولا باطل، ولأن الرعايا أكثرهم بتلك البلدة، والعمال إنما كانوا يهوداً، فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه، فيلقي ظالماً منهم إلى ظلمة، ويأخذ منهم ما يملأ به بيت المال، وإقامة أود المملكة أولى به منهم[3].

كما يجيب عنه ابن حيان عندما يصفه بقوله: "وكان هذا اللعين في ذاته على ما زوى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلماً وفهماً وذكاءً ودماثةً وركانةً ودهاءً ومكراً، وملكاً لنفسه، وبسطاً لمن خلفه، ومعرفة بزمانه، ومداراة لعدوه، واستسلالاً لحقودهم بحلمه، [ناهيك] من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلمين، وشغف باللسان العربي، ونظر فيه، وقرأ كتبه، وطالع أصوله، فانطلقت يده ولسانه، وصار يكتب عنه، وعن صاحبه بالعربي، في ما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام، وذكر فضائله ما يريده، ولا يقصر في ما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام، وجمع لذلك السجيج في علوم الأوائل الرياضية، وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة النجومية، ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كل مستولٍ منه على غاية، قليل الكلام مع ذكائه، ماقتاً للسُّباب، دائم التفكر، جماعةً للكتب"[4].

---

[1] IBID, VOL.2, P.72.
ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص169؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص216-217.

[2] IBID, VOL, 2, P.72.
ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص169.

[3] الأمير عبد الله، التبيان، ص31-32.

[4] ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص438-439 (رواية ابن حيان).

طالب زعماء صنهاجة حبوس أن يعين خليفة له يتولى إمارة غرناطة بعد موته، وقد أثار هذا الطلب قلق إسماعيل بن نغدله، مثلما أثار قلق أثرياء اليهود في غرناطة. لقد كان المرشحون لخلافة حبوس هم ولده باديس، المعروف بجرأته وقوة شخصيته. وولده الأصغر بلقين، المعروف بطيبته، وعدم ميله للحكم، وابن أخيه يَدَّيِر الذي يجمع بين القوة والاستقامة والنباهة والإقبال على العلم ومجالسة الفقهاء. وكان إسماعيل يخشى من تولي يدير، لأنه يعلم أن خلقه ودينه لن يبقيا يهودياً في منصب وزاري في حكومته، وقد سبق أن طرد ابن صديق إسماعيل اليهودي من وظيفته الحكومية. وهو يخشى أيضاً من تولي بلقين، لأن صغر سنه وطيبته ستمكن رؤساء صهناجة من التدخل في شؤون الحكم، ومن المؤكد أنهم لن يسكتوا عن رؤية يهودي في منصب وزاري مهم في دولتهم. كما أن تولي بلقين يحقق رغبة أغنياء اليهود أمثال جوزيف بن ميجاش ونحمياه أشكافا، الذين يتوقعون أن مصالح زعماء صنهاجة المرتبطة بمصالحهم، ستجعل لهم نصيباً في وظائف الدولة، وستمكنهم من إبعاد إسماعيل الذي ما يزالون يضمرون له الكره والعداء[1].

لقد أحب إسماعيل أن يكون عرش غرناطة من نصيب باديس، وبذل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك، حيث أسهم في إقناع حبوس بالتوصية لباديس من بعده، كما حث بلقين على التنازل لأخيه، وأقنع من استطاع من زعماء صهناجة بمناصرة باديس[2]. وعندما مات حبوس سنة (437 هـ=1045م) قام عدد من زعماء صنهاجه بمبايعة بلقين، لكنه رفض قبول البيعة وأعلن أنه سيبايع لأخيه باديس حسب رغبة والده[3]. وهكذا تحققت رغبة إسماعيل التي عمل من أجلها، وصدق ظنه في باديس الذي قدر جهوده في خدمة

(1) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.72.
ينظر: الأمير عبد الله، التبيان، ص27-29، 36.

(2) IBID, VOL.2, P.73; BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.33; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.624.

(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.72.

والده، وفي العمل من أجل وصوله إلى الحكم[1]، فقام بتثبيته في منصبه الوزاري الكبير[2].

بدأ وزير المرية أحمد بن عباس محاولاته لإقناع باديس بإبعاد الوزير اليهودي عن منصبه، فبعث إليه برسالة يبين فيها الإثم الكبير الذي يقترفه بتولية يهودي على رقاب المسلمين، ويؤكد أن إبعاده سيؤدي إلى إحلال السلام بين المملكتين، وأن بقاءه سيؤزِّم العلاقة بين غرناطة ومن حولها من الملوك المتحالفين، في إشارة إلى معاهدة المرية مع إمارة قرمونة التي تقع غربي غرناطة، والتي كان باديس يخشى من خطرها على مملكته[3].

رفض باديس إبعاد إسماعيل، وأرسل قاضي غرناطة أبا الحسن علي بن محمود بن ثوبة إلى زهير حاكم المرية، ليقنعه بتجديد معاهدة التحالف بين إمارتيهما، لكن زهيراً رفض طلب باديس[4].

وفي شوال من سنة(429هـ=1038م) ظهر زهير فجأة في غرناطة، ومعه وزيره ابن عباس وفرقة من جيشه وعسكر على تل قرب غرناطة، وكان يهدف من زيارته المفاجئة هذه إلى إهانة باديس وإخافته[5].

استقبل باديس زهيراً، بالرغم من الطريقة المهينة التي دخل بها إلى غرناطة، وذلك لأنه كان يخشى من القوة العسكرية التي عرفت بها إمارة المرية، وعقد مباحثات مطولة مع زهير، إلا أنها باءت بالفشل[6]، فقد كان المطلب الوحيد لزهير ووزيره هو إزاحة الوزير اليهودي الذي يرفض أن يتخلى عنه[7].

توجه زهير ومن معه عائدين إلى المرية، لكنهم فوجئوا بكمين أعده لهم الغرناطيون بإحكام في إحدى الممرات الضيقة بين جبال غرناطة، وقد تمكن جنود باديس من قتل حاكم المرية زهير[8]، وأسر الوزير أحمد بن عباس، ونقله إلى السجن في غرناطة، حيث حاول أن يفدي نفسه بمبلغ كبير، وجاء مبعوث من ابن جهور ليتوسط في الإفراج عنه[9]، لكن باديس رفض وقام بقتله[10]، "متأولاً لإثارته الفتنة"[11].

وكان من بين الأسرى الذين أسرهم الجيش الغرناطي ابن حزم الأندلسي المعروف بمناظراته ومعاداته لإسماعيل بن

---

[1] IBID, VOL.2, P.72.

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص438؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص230.

[3] ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.73-74.
عن خشية حبوس وباديس من تحالف المرية مع قرمونة. ينظر: الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص656.

[4] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص656؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص169؛ IBID, VOL.2, P.74.

[5] ابن بلقين، التبيان، ص32-35؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص169؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص216؛
IBID, VOL.2, P.75; DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.625.

[6] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص675؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص169-170؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص216-217.

[7] ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.75

[8] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص170-171؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص216-217.

[9] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص664؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص171-172.

[10] ابن بلقين، التبيان، ص35؛ الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص664؛ ابن سعيد الأندلسي، المغرب، جـ2، ص206، ترجمة رقم: 491.

[11] ابن بلقين، التبيان، ص35.

نغدله. وكان ابن حزم قد شارك هو والباجي وفقهاء وكتاب آخرون مع الجيش الذي دخل غرناطة وطالب بإزاحة اليهودي عن منصبه "وظفر باديس على قوم من وجوه رجال زهير، فعجّل على الفرسان والقواد بالقتل، وشمل الأسار حملة الأقلام وفيهم وزيره الكبير أحمد بن عباس الجارّ لحرِّ هذه النائرة، فأمر بحبسه، وشفاؤه الولوغ في دمه، وعفّ باديس عن دماء حملة الأقلام دونه، إلا من أصيب منهم في الحرب، وأطلق ابن حزم والباجي وغيرهما"(1).

سُرَّ إسماعيل بمقتل أحمد بن عباس، وَمَجّدَ هذه المعركة التي شارك فيها بنفسه، بقصيدة طويلة، شبه فيها سقوط ابن عباس بتحرر اليهود من قبضة هامان، وأرسل القصيدة مع رسالة إلى الطوائف اليهودية في الشمال الأفريقي ومصر وفلسطين، ليشاركوه الفرحة بهذا الانتصار(2).

استطاع إسماعيل بن يوسف أن يحوز على ثقة باديس وأن يقنعه بأهمية وجوده في إدارة الدولة. وقد ازدادت ثقته به عندما دبر بعض زعماء صهناجة وعلى رأسهم ابن عمه يدّير خطة لقتل باديس. إذ قرر هؤلاء الزعماء أن يشركوا معهم الوزير إسماعيل، وذلك حتى لا يتسرب إليه خبرهم وهو بعيد عنهم فيُعين باديس عليهم. ولكي يورطوه قرروا أن يكون اجتماعهم في منزله، لكن إسماعيل الذي لا يثق أصلاً بيدير فَهِمَ ما يرمون إليه، وأبلغ باديس بالأمر، وجاء به إلى منزله ليسمع بنفسه من مكان خفي زعماء صهناجة وهم يخططون لقتله(3). ومما قاله الأمير عبد الله بن بلقين في رواية هذه الحادثة: "وتقدم إلى باديس وأخبره الخبر، وأتى معه إلى المنزل، وقال له: ليس الخبر كالعيان، اسمع بأذنك وَعِ بقلبك. وهو بموضع مرتفع على البيت الذي يرومون فيه عملهم، وأبو إبراهيم [إسماعيل بن نغدله] في ذلك كله يقول عند محاورتهم كالمخاطب للبارئ: يامن يرى ولا يُرى، وهو يعني بذلك باديس جدنا الذي يراهم ولا يرونه، فشكر ذلك باديس لأبي إبراهيم. وأيقن بثقته وأمانته. وصار له خادماً من ذلك النهار، وشاوره في أكثر رأيه مع بني عمه"(4). وعندما اكتشف باديس أن أكثر من مئتي رجل من أكابر صنهاجة يكاتبون يدير الذي لجأ إلى إشبيلية، ويدبرون معه الخطط للإطاحة به "غضب لذلك وهمَّ بقتلهم وشاور أبا إبراهيم في الأمر، فقال له: أرى من الرأي ألَا تؤنب أحداً على هذه الكتب، ولا تعلمهم أنها صارت إليك، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفئ أثرها، ورأس العقل مداراة الناس، فإن عاقبت كم عسى أن تعاقب، وهم أجنادك وأجنحتك، فاحتل للأمر بغير هذا الوجه. فقبل بنصيحته، واستعان ببعضهم على بعض، وأفشى فيهم العطايا، وضرب الابن بأبيه والأخ بأخيه"(5).

خاضت إمارة غرناطة حروباً أخرى مع إمارتي إشبيلية وقرمونة، ومع يدير الذي حظي بدعم إمارة إشبيلية، وصار يهاجم غرناطة، وشارك إسماعيل في معظمها، وقادها بنفسه في بعض الأحيان، وكان كلما حقق انتصاراً يكتب قصيدة

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص171.

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.626; ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.79; BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.34.

(3) ابن بلقين، التبيان، ص31؛ ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.80-81.

(4) التبيان، ص31.

(5) م. ن، ص33-34.

بالعبرية، يصور فيها أحداث المعركة ودوره فيها، وكان أحد أهم الانتصارات التي حققتها إمارة غرناطة، هو الانتصار على إمارة إشبيلية سنة(431هـ=1039م)، وقد صور إسماعيل أحداث تلك المعركة التي شارك فيها بقصيدة اشتملت على 149 بيتاً[1].

وبالرغم من أن عدداً من أغنياء ووجهاء اليهود في إمارة غرناطة لم يكونوا على وفاق مع إسماعيل بسبب أنه ساد عليهم، وفاقهم جاهاً وغنىً، إلا أن معظم اليهود في هذه الإمارة قد أفادوا من احتلال وزير يهودي لهذا المنصب الكبير. يتضح ذلك من خلال رواية ابن عذاري التي يقول فيها: " فاتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال من أهل مِلته، واكتسبوا الجاه والمال في أيامه، واستطالوا على المسلمين"[2].

لقد أصبح وزير غرناطة اليهودي ذائع الصيت ليس في غرناطة وحدها، وليس بين يهود الأندلس فحسب، وإنما في كثير من المناطق والبلدان خارج حدود الأندلس[3].

مرض الوزير اليهودي إسماعيل بن نغدله، ومات في ربيع سنة (448هـ=1056م)[4]، فأحزن موته يهود الأندلس والخارج، وأقاموا صلواتهم عليه، وأرسلوا التعازي إلى أسرته، وكتب حبر أليسانة إسحاق بن غايات قصيدة طويلة، ألقاها خلال القداس المقام على روحه[5]. وتحدث عن موته ابن حيان فقال:" هلك في العشر الثاني لمحرم سنة تسع وخمسين وأربع مئة، فجلل اليهود نعشه، ونكسوا لها أعناقهم خاضعين، وتفاقدوه جازعين، وبكوه معلنين"[6]. وعن موته أيضاً قال ابن عذاري:" فدام أمره كذلك إلى أن هلك، وترك ابناً له اسمه يوسف"[7].

خلف إسماعيل في منصبه ولده يوسف، وكان والده قد هيـأه لذلك منذ صغره، يقول ابن حيان: "وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية، يعلمونه، ويدارسونه، وأعلمه بصناعة الكتب ورشحه لأول حركته لكتابة ابن مخدومه بلقين، برتبة المترشح لمكانه، تمهيداً لقواعد خدمته، فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت، أدناه باديس إليه، وأظهر الاغتباط به، والاستعاضة بخدمته عن أبيه"[8].

لقد أصبح يوسف بن إسماعيل كبيراً للوزراء في غرناطة، ومسؤولاً عن جمع الجزية من اليهود، ورئيساً أو ناغداً للطائفة اليهودية في غرناطة، وذلك على الرغم من أن عمره لم يكن يتجاوز إحدى وعشرين سنة[9].

---

(1) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.84-86.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص264.

(3) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.626; ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.134-136, 164-165; BEAR, A HISTORY OF THE JEWS, VOL.1, P.34.

(4) أخطأ ابن سعيد الأندلسي عندما قال: إن إسماعيل بن يوسف قتل في ثورة المسلمين على اليهود في غرناطة، إذ خلط بين إسماعيل وولده يوسف الذي تجمع المصادر الإسلامية واليهودية أنه هو الذي قتل في تلك الثورة. ينظر: ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، جـ2، ص114-115، ترجمة رقم: 426.

(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.157-158.

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص439.

(7) البيان المغرب، جـ3، ص264

(8) ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص439.

(9) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.159.

وقد حقق يوسف نجاحاً باهراً في تحصيل المزيد من الأموال لخزينة الدولة، وكان يقول لباديس: "أنا رجل ذمي لا همة لي إلا خدمتك، وجمع الدراهم لبيت مالك"[(1)]، وحصل على ثقة باديس، فأوكل إليه قيادة الجيش عند الحرب[(2)]. وهناك قصيدة لشاعر يهودي من غرناطة كتبها بعد عودة يوسف من إحدى المعارك مع مملكة إشبيلية[(3)]. وكان يوسف يصحب باديساً في زياراته المتكررة إلى قرطبة، فيحظى معه بالإكرام والتبجيل[(4)]. ويقول الشنتريني أخبرني "من رآه يساير صاحبه بساحة قرطبة في بعض قدماته عليها لبعض الشؤون المضلة والفتن المصمئلة: [المذهلة]، قال [المحدث]: فرأيته مع باديس فلم أفرق بين الرئيس والمرؤوس"[(5)].

قلد يوسف الملوك في ملبسهم ومركبهم ومسكنهم وفي كل مظاهر ترفهم، فقد اتخذ قصراً فخماً على التل العالي في غرناطة، الذي أقيمت عليه قصور الملوك النصريين في ما بعد[(6)]. وقد أشار إلى ذلك أبو إسحاق الإلبيري في قصيدته التي دعا فيها قبيلة صنهاجة إلى الثورة على اليهود في قوله:

ورخم قردهم داره	**وأجرى إليها نمير العيون**
وصارت حوائجنا عنده	**ونحن على بابه قائمون[(7)]**

كما أحاط نفسه بحاشية كبيرة من اليهود الذين سلَّمهم أرفع مناصب الدولة، وكانوا يتصرفون وكأنهم فوق كل القوانين[(8)]. وأقام في قصره الحفلات الماجنة، دون مراعاة لمشاعر المسلمين من حوله، وكان يغدق بالأموال على الشعراء العرب واليهود الذين كانوا يكتبون القصائد في مدحه[(9)]. ووسع المكتبة التي ورثها عن أبيه[(10)]، فأصبحت تضم كتباً في مختلف العلوم الإسلامية[(11)]، "وكان له وراقون ينسخون له الكتب بالنفقات والمرتبات"[(12)].

وشهد مؤرخ يهودي أندلسي على كبْر يوسف وغروره وغطرسته[(13)]. وقدم ابن عذاري السبب الذي ولد هذه الصفة عنده بقوله، إن إسماعيل "ترك ابناً له اسمه يوسف لم يعرف ذلة الذمة ولاقذر اليهودية "[(14)]، بمعنى أن نشأته في بيت أبيه الوزير الثري، خلقت فيه كبراً وغطرسة غير معهودة عند غيره من يهود الذمة. كما دفع الكبر بيوسف للسير على نهج أبيه

---

(1) الأمير عبد الله، التبيان ص38.
(2) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.159.
(3) IBID, VOL.2, P.161.
(4) IBID, VOL.2, P.162.
(5) الذخيرة، ق1، م2، ص767.
(6) ASHTOR, THEJEWS, VOL.2, P.165.
وردت إشارة عن هذا القصر عند: الأمير عبد الله، التبيان، ص47.
(7) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص232.
(8) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص232-233؛ .ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.166
(9) ASHTOR, THE JWS, VOL.2, P.165.
(10) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.162.
(11) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص276؛ .ASHTOR, THE JEWS, VOL2, P.162
(12) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص276.
(13) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.164.
(14) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص264.

في سخريته من المسلمين ودينهم، وشاركه في ذلك الكثير من اليهود، ولاسيما أصحاب الوظائف والمناصب الذين ازدادوا في عهده زيادة ملحوظة[1]. وقد جاء في قصيدة أبي إسحاق الإلبيري أبيات تبين هذا السلوك منها قوله:

ويضحك منا ومن ديننا   فإنا إلى ربنا راجعون[2].

وقوله:

وقد ناهضوكم إلى ربكم   فما يمنعون وما ينكرون[3].

كما اعترفت المصادر اليهودية بأنه كان يتهجم على القرآن الكريم[4]. وقد شاع بين يهود غرناطة أن يوسف لم يراع حتى تعاليم التوراة[5]، وأنه يحتقر كل الأديان.

لقد أثار استهتار يوسف بن نغدله وتجاوزاته كره مسلمي غرناطة، وشاركهم في هذا الشعور كثير من قادة صنهاجة، وكان يوسف يعلم بذلك، ولهذا قام ببث جواسيسه في كل مكان داخل قصر باديس، وصارت تصله أدق أخباره، يقول ابن عذاري: "وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيان شغلهم الملعون بالإحسان إليهم، والإنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شيئ من أمور باديس، من كل مايجري في منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه، وَيُعْلِمُ اليهود به، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهودي ذلك"[6].

وبهذه الاحتياطات تمكن يوسف أن يحبط محاولة للتخلص منه، بدأ بتدبيرها بلقين بن باديس، وبدهائه وغدره تخلص من بلقين، ومن معظم الذين يعتقد أنهم يعادونه. يقول ابن بلقين عن قتل يوسف لأبيه: "فشرب يوماً عنده على عادته، فلم يخرج عنه، حتى قذف ما كان في جوفه، واستلقى على الأرض، فلم يستطع المشي إلى منزله إلا عن مشقة، ولبث يومين يجود بنفسه حتى مات"[7]، ويقول ابن عذاري: "وكان لباديس ولد اسمه بلقين، وكان عاقلاً نبيلاً فرشحه للأمر من بعده، ولقبه سيف الدولة، وكان له خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مبغضاً في هذا اليهودي، فبلغه أنه تكلم فيه عند أبيه، فبلغ ذلك من اليهودي كل مبلغ، ودبر الحيلة عليه، فدخل اللعين يوماً على الفتى، وقبل الأرض بين يديه، فقال له ما تريد، فقال له: يرغب عبدك منك أن تدخل داره مع من أحببت من رجالك يستشرف العبد بذلك، فدخل إليه، فقدم له ولرجاله طعاماً وشراباً وجعل السم في الكأس لابن باديس، فرام القيئ فلم يقدر عليه، فحمل إلى قصره، فقضى نحبه في غد يومه، ولم يعلم أبوه سبب موته، فقرر اللعين عنده أن أصحابه وبعض جواريه سموه، وتفرق أمره فقتل باديس من جواري ولده

---

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص232-233؛ ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.166.
(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص233.
(3) م. ن، ق2، ص233.
(4) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.166.
(5) IBID, VOL.2, P.167.
(6) البيان المغرب، جـ3، ص264؛ قارن: ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص440.
(7) التبيان، ص40.

ومن فتيانه وبني عمه جماعة كبيرة، وخافه سائرهم ففروا عنه"[1].

وأصابَ الغمُّ والهمُّ باديس بفقده ولده، وبقتله كثيراً من أقاربه وخاصته الذين ظنَّ أنهم خانوه "وأقبل باديسُ على شرابه ليتسلَّى به عن مُصابه"[2]، وخسر ولاء الكثير من رجال دولته، إذ "فرّوا عنه، وفسدت له قلوبهم، و خبثت ضمائرهم[3].

وصار اليهودي يصولُ ويجولُ في دولة باديس الذي كان لا يكاد يفيقُ من سكره، وأصبح هو الحاكم الفعليُّ لغرناطة. إذ يقول ابن الخطيب: "وعظم استيلاءُ اليهوديُّ وزير باديس"[4]. ويقول ابن عذاري: "وصارت لليهودِ صولة على المسلمين في دولته"[5]. ويقول الشنتريني: "وكان آخرُ أمره قد حجبَ صاحبه عن النَّاسِ، و سجنه بين الدن والكأس"[6].

ويقول الأمير عبد الله بن بلقين: "وكبرت عند ذلك سن جدنا، وأخلد إلى الراحة، وزهد في طلب البلاد لكبر سنه، وموت ابنه، وألقى بمقاليده إلى اليهودي في الخدمة عنه، فتمكن بما شاء من الأمر والنهي[7]. وخشي الوزير اليهودي يوسف بن إسماعيل من وصول ماكسن بن باديس إلى السلطة بعد موت أبيه، فأراد التخلص منه أيضاً، وقد لاحظ ماكسن ذلك فقال له: "أتريد أن تقتلني كما قتلت أخي؟"[8].

وخطط يوسف للتخلص من ماكسن مستفيداً من كونه سريع الغضب فافترى على أم ماكسن عند باديس، وأشهد على ذلك جماعة من أهل الدولة ممن يعادون ماكسن "حتى جعلته الأنفة من مكروه مانقل إليه أن يأمر بقتل أمه وداياته وبعض من انتمى"[9]. ثم أقنع باديس أن ولده ماكسن يدبر للإطاحة به والاستيلاء على الحكم. فأوكل باديس لليهودي مسألة نفي ماكسن، فسلمه إلى مجموعة من العبيد، وأوصى أحدهم أن "يصل معه إلى موضع سماه بحيث يخفي أمره، فيضرب فيه عنقه"[10]. ويروي ذلك الأمير عبد الله بقوله: "وخرج عمنا على أسوأ حال، مذعوراً خائفاً بعضهم يشير بقتله، وبعضهم يأبى إلا إزاحته عن النظر كله، حتى صار ببعض الطريق، وانْحَلَّ عن غمومه بهلاك اليهودي"[11]. كما بلغ السوء بيوسف بن إسماعيل أن قام بقتل خاله اليهودي أبي الربيع بن الماطوني غدراً في مجلس شراب. وحتى لا يؤاخذه باديس على ذلك أسكته بمبلغ من المال. وأحد أسباب هذا القتل كما يروي الأمير عبد الله في مذكراته أن أم ماكسن كانت تترك التعامل مع

---

[1] البيان المغرب، جـ3، ص265-266.
توجد تفاصيل أكثر عن هذه الحادثة عند الأمير عبد الله بن بلقين، كتاب التبيان، ص39-42.
[2] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص265.
[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص231.
[4] م. ن، ق2، ص231
[5] البيان المغرب، جـ3، ص265، 266.
[6] الذخيرة، ق1، م2، ص767.
[7] التبيان، ص42.
[8] م. ن، ص48.
[9] التبيان، ص48. بمعنى أنه صار يأمر بقتل مربياته العاملات في القصر، وبعض من انتمى إلى أسرة بني زيري.
[10] التبيان، ص49.
[11] م. ن، ص49.

يوسف وتلجأ إلى خاله "وكان قابض الوجيبة، فتخاطبه أبداً، وتطلب منه مالاً باسم السلف. فغار الوزير لذلك"[1].

لم يكتفِ الوزيرُ بالخرابِ الذي أحَّله بمملكة غرناطة، بل قرر أن يواصِلَ أعماله التخريبية، وأن يقيم لليهودِ دولة، يقول ابن عذاري: " وذلك أن هذا اللعين طلبَ أن يقيمَ لليهودِ دولة، فدسّ إلى ابن صمادح صاحبِ المرَّيةِ في السرأن يُدخله غرناطة، ويكون اليهوديّ في المريَّة"[2]. ويقول الشنتريني: "ووعد جاره ابن صمادح بالمريَّة، أن يقعده مكانه، ويخلعُ على أعطافه سلطانه، فسرّبَ إليه ابن صمادح صميم الأموالِ، وجلا عليه وجوه الآمال، وإنما كان أراد أن يثلَّ عرش الباديسيِ بالصمادحي، لما كان يعلمُ من كلاله، ويتيقنُ من قِلَّةِ استقلاله، وقد عزم ساعة يخلو له وجه ابن صمادح بعد باديس، أن يتمرَّس بجانبه، ويلحقه بصاحبه[3]. ويقول أيضاً: "وقد كان اليهودي ملَّكَ ابن صمادح أكثر حصون غرناطة باحتجاز أموالها، وإفسادِ قلوبِ رجالها، فأضافها ابن صمادح إلى بلده، وباديس لا يشعر بخروجها عن يده، واليهوديّ أثناء ذلك يريش ويبري، وشفرته في أديم صاحبه تحلقُ وتفري"[4]. ويقول ابن الخطيب: "وكثرت فيه الأقوال، ورُميَ بمداخلةِ ابن صمادح، صاحب المرية في تصيير ملك باديس إليه"[5]. أما الأمير عبد الله بن بلقين فيقول: "وكتب اليهودي إلى ابن صمادح يخبره بخروج القوم الغوغاء من المدينة، وأنه لم يبق فيها إلاَّ من لايؤبه له، ويحصدهم سيفه إذا دخلها، وأنه متهيئ لفتح أبوابها متى جسر وطرقها، وضَيَّعَ النظر في سائر الحصون غير القواعد، وأهمل ما يرتقبون به من الرجال والعُدد على وجه الغفلة حتى خلت، والمظفر [باديس] في هذا كلّه، لاخبرَ عنده إلا الإقبال على الشرب والدعة "[6].

وتؤكد الدراسات اليهوديةُ أن يوسف كان قد عزم فعلاً على إقامة دولةٍ لليهود في المرية، يكون هو مليكاً عليها[7]. وتبين أنه أقدم على ذلك لأنه غيرُ آمنٍ على مستقبله ومستقبل قومه يهود غرناطة الذين قد يتعرَّضون لانقلاب باديس أو من سيخلفه عليهم[8]، وتقول بأن يوسف رأى دولاً من حوله يحكمها الصقالبة والبربر مع أنهم ليسوا أكثرية، ووجد أنهم بجنودٍ مرتزقة يخضعون هذه الدول، ويدين لهم سكانها، فأحبَّ أن يقلدهم في ذلك[9]. كما تحدثت عن سببِ اختياره المرية، وبينت أن ذلك لأنها مدينة صناعية غنية، وذات سواحل طويلةٍ على البحرَ، تمكن اليهود من الاتصال بسهولة بيهود الخارج، كما تجعلهم قادرين على الهرب عبر البحر إذا تعَّرضوا لهجومٍ، وعجزوا عن صدِّه[10].

---

(1) م. ن، ص48.
(2) البيان المغرب، جـ3، ص266.
(3) الذخيرة، ق1، م2، ص767-768.
(4) الذخيرة، ق1، م2، ص768-769.
(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص231.
(6) التبيان، ص53.
(7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.182.
(8) IBID, VOL.2, P.178.
(9) IBID, VOL.2, P.178-179.
(10) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.181. عن مميزات وأهمية مدينة المرية. ينظر: سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، (الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1984م)، ص13-50.

وبالرَّغم من أن ابن عذاري وحده من بين المصادر الإسلامية هو الذي ذكر صراحة أن يوسف كان يريد إقامة دوله يهودية في المريّة[1]، إلا أن عزم يوسف على إقامة دولة يمكن أن يُفهم بوضوح من خلال الروايات الأخرى. إذ من غير المعقول أن يسلم يوسف أراضٍ وحصونٍ غرناطية لابن صمادح، ويعده بعرش غرناطة ويعرض نفسه لغضب المسلمين دون مقابل. بل إن رواية الشنتريني تدلُّ على أنه كان يخطط للسيطرةِ على المريَّة ثمّ القضاء على ابن صمادح، وضمَّ غرناطة إليه، وذلك بعد أن تكون الحربُ قد أنهكت الطرفين[2]، "وقد عزَمَ ساعة يخلو له وجه ابن صمادح بعد باديس أن يتمرّس بجانبه، ويلحقه بصاحبه، كأنه نظر خبر عُبيد الله بن ظبيان حين وضع رأس المصعب [ابن الزبير] بين يدي عبد الملك بن مروان، فسجد عبد الملك، قال ابن ظبيان: فقمتُ في ركابي، وأحسَّ بي ورفع رأسه وقال: ما الذي أردت أن تصنع؟ قلت: هممتُ أن أقتلك، فأكون قد قتلتُ ملكي العرب في يومٍ واحد، فقال: لولا منتك علينا برأس المصعب، لكان عنقك أهون ما يضرب. فأراد هذا اليهودي على انحطاطه عن الرجال، وانخراطه في سلك ربات الحجال، أن يستدرك على ابن ظبيان بقتل رئيسين من رؤساء ذلك الزمان"[3].

ويبدو أن اختيار يوسف لابن صمادح من بين ملوك دول الطوائف لهذه المهمة يرجع إلى ضعفه عسكرياً، إذ من السهل أن يتغلب عليه بعد أن يقيم دولة يهودية في المرية[4]، إضافة إلى نفوذ يوسف في المرية، ومجاورتها لغرناطة، فضلاً عن مميزات المرية التي ذكرت سابقاً.

تسرب خبر المؤامرة التي دبرها يوسف مع ابن صمادح لتسليم غرناطة مقابل أن تكون المرية دولة لليهود، عن طريق بعض قادة جيش ابن صمادح، الذين احتلوا المناطق الشرقية والوسطى من مملكة غرناطة، دون أن يجدوا مقاومة تذكر[5]. وقد انتشر هذا الخبر بسرعة بين مسلمي غرناطة. ولأنهم لم يعودوا يرون باديس المحتجب في قصره، ظنوا أن وزيره اليهودي قد قام أيضاً بقتله، فامتلأت نفوسهم غضباً على يوسف وحاشيته.

وصلت أخبار المؤامرة إلى أبي إسحاق الإلبيري، وكان قد أُبعد عن غرناطة بأمر من يوسف[6]، فكتب قصيدة يحرض فيها باديس وقبيلة صنهاجة على الثورة على يوسف والمتسلطين اليهود. وقد انتشرت القصيدة بين المسلمين انتشاراً واسعاً، وزادت من غضبهم على اليهود[7].

وتُعدُّ قصيدة أبي إسحاق وثيقةً مهمة مصورة لحال المسلمين واليهود في غرناطة تحت حكم وزيرها اليهودي يوسف بن إسماعيل، ولذلك فإني سأوردها كاملة[8]:

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص266.
[2] الذخيرة، ق1، م2، ص767-768.
[3] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص768.
[4] ينظر: .ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.183
[5] ASHOTR, THE JEWS, VOL.2, P.184.
[6] ابن سعيد الأندلسي، المغرب، جـ2، ص132-133، ترجمة رقم: 444؛ .IBID, VOL.2, P.186
[7] ابن سعيد الأندلسي، المغرب، جـ2، ص133، ترجمة رقم: 444.
[8] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص231-233.

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسدُ العرينْ
مقالة ذي مقّةٍ مشفقٍ يعدُّ النصيحة زلفى ودين
لقد زلَّ سيدكم زلة تقرُّ بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود بها وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى وقد جاز ذاك وما يشعرون
فكم مسلم راهب راغبٍ لأرذل قردٍ من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدي فيهم بالأولى من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستاهلون ورُدَّهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأفواجهم عليهم صغار وذل وهون
ولم يستخفوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين
أباديس أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك مرمى اليقين
فكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين
وكيف استنمت إلى فاسق وقارنته وهو بئس القرين
وقد أنزل الله في وحيهِ يحذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهُمُ خادماً وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم وكادت تميدُ بنا أجمعين
وكيف انفردت بتقريبهم وهم في البلاد من المبعدين
على أنك الملك المرتضى سليل الملوك من الماجدين
وأن لك السبق بين الورى كما أنت من جُلة السابقين
وإني احتللت بغرناطة فكنت أراهم بها غابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها وهم يخصمون وهم يقصمون
وهم يلبسون رفيع الكسا وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أميناً خؤون
ويأكل غيرهم درهماً فيُقصى ويُدْنَوْن إذ يأكلون

وقد ناهضوكم إلى ربكم	**فما يمنعون وما ينكون**
وقد لابسوكم بأسحارهم	**فما تسمعون ولا تبصرون**
وهم يذبحون بأسواقنا	**وأنتم لإطريفهم آكلون**
ورخّم قردهم داره	**وأجرى إليها نمير العيون**
وصارت حوائجنا عنده	**ونحن على بابه قائمون**
ويضحك منا ومن ديننا	**فإنا إلى ربنا راجعون**
ولو قلتُ في ماله إنه	**كمالك كنتُ من الصادقين**
فبادر إلى ذبحه قربة	**وضحِّ به فهو كبش سمين**
ولا ترفع الضغط عن رهطه	**فقد كنزوا كل علقٍ ثمين**
وفرّق عراهم وخذ مالهم	**فأنتم أحق بما يجمعون**
ولا تحسبنْ قتلهم غدرة	**بل الغدر في تركهم يعبثون**
فقد نكثوا عهدنا عندهم	**فكيف تلام على الناكثين**
وكيف تكون لنا همة	**ونحن خمول وهم ظاهرون**
ونحن الأذلة من بينهم	**كأنا أسأنا وهم يحسنون**
فلا ترضَ فينا بأفعالهم	**فأنت رهين بما يفعلون**
وراقب إلهك في حزبه	**فحزب الإله هم المفلحون**

التقى يوسف بعدد من رجال حاشيته مساء الجمعة (10-صفر-459هـ=30-12-1066م) في بيت مؤقتٍ اتخذه بالقرب من قصر باديس. وكان الخوف يسيطر على المجتمعين، بسبب حالة الغضب الشديد بين مسلمي غرناطة، والتي أجَجَتها قصيدة أبي إسحاق الإلبيري. وكان من بين رجال يوسف عبيد مسلمين يخفي بعضهم كرههم له. وقد حاول يوسف أن يهدِّئ رجاله ويطمئنهم، فقدم إليهم الطعام والخمر، وأخبرهم أن جيش ابن صمادح على وشك دخول المدينة[1]، فقال له أحد العبيد المسلمين:" قد علمنا هذا، فأخبرنا على تسويغك هذه الإنزالات، أهو مولانا حي أم ميت ؟، فرد عليه بعض حاشية اليهودي، ووبخه على قوله، فأنف ذلك العبد وخرج فاراً على وجهه، وهو سكران يصيح بالناس ويقول: يامعشر من سمع بالمظفر [باديس]، قد غدره اليهودي، وهذا ابن صمادح داخل في البلدة، فتسامع لذلك الناس أجمع خاصتهم وعامتهم وأتوا عازمين على قتل اليهودي فتحيل على المظفر حتى أخرجه إليهم، وقال: هذا سلطانكم حيٌّ، ورام الرئيس تسكينهم فلم يقدر،

(1) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.187-189

واتسع الخرق على الراقع، وهرب اليهودي بنفسه إلى داخل القصر، واتبعته العامة"[1]. فلجأ إلى غرفة الفحم وسوَّد به وجهه وتنكر حتى لا يعرف، لكنهم عرفوه وقتلوه[2].

وتقول المصادر اليهودية: إن المسلمين هاجموا القصر في اليوم التالي، وسحبوا جثة يوسف عبر شوارع غرناطة وعلقوه بالقرب من باب المدينة، ثم توجهوا إلى دور اليهود وفتكوا بهم ونهبوا دورهم وأموالهم[3].

وتحتوي المصادر الإسلامية على تفصيلات متشابهة عن هذا الموضوع[4]. إذ يقول الشنتريني: " فلما كان اليوم الذي أراد الله فيه إزالة نعمته عنه، وإراحة عباده و بلاده منه، نذر به أولئك المغاربة، فأعلنوا بالصياح، وثاروا إلى السلاح، وأتى الصريخ بقية الجند، وعامة أهل البلد، ونادى مناديهم: غدر اليهودي وخان، وطاح المظفر وحان، فدخلوا القصر من كل باب، وهتكوا حرمة اليهودي دون حجاب، فقتل في بعض خزائن الفحم...، وقد استطال الناس على يهود، وقُتل منهم يومئذ نيف على أربعة آلاف، ملحمة من ملاحم بني إسرائيل، باءوا بذلها، وطال عهدهم بمثلها. ورجع ابن صمادح قد صفرت يداه، وأخلفه ما تمناه، وانقلب اليهودي مذموماً مدحوراً، لم يمتع بدنياه، ولا خلص إلى ما رجاه[5]". ويقول المقري: " فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وفيهم الوزير المذكور"[6].

وبمقتل يوسف بن إسماعيل بن نغدله ومعظم رجالات اليهود في غرناطة، فقد اليهود مركزهم الثاني في الأندلس، و كانوا قد فقدوا مركزهم الأول في قرطبة بانتهاء عصر الخلافة، وانتقل من تبقى من يهود غرناطة إلى إشبيلية التي أصبحت المركز الثالث ليهود الأندلس بعد غرناطة[7].

لم يكن إسماعيل وولده يوسف هما اليهوديان الوحيدان في الأندلس اللذان يحصلان في دويلاتها في عصر الطوائف على منصب كبير. فقد كان وزير صاحب المرية ابن صمادح يهودياً[8]، ووزير المقتدر بن هود في سرقسطة يهودياً يُدعى أبو الفضل حسداي ابن يوسف[9]، وليس يهود غرناطة وحدهم هم الذين حصلوا على وظائف مهمة في ذلك العصر، وتسلَّطوا على المسلمين . فقد حصل عليها يهود آخرون في دويلات أخرى، ومارسوا تسلَّطهم على المسلمين بدرجات متفاوتة[10]. ومثلما استنكر مسلمو غرناطة هذا التسلط ورفضوه، استنكره أيضاً المسلمون في تلك الدويلات . وعبروا عن رفضهم له بطرق مختلفة. فهناك حادثة وقعت في المرية، أشرنا لها سابقاً، تبين أن أحد فقهائها المشهورين ويُدعى عبد الله

---

(1) ابن بلقين، التبيان، ص54؛ ينظر: ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.187-189.
(2) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص769، ابن عذاري، البيان المغرب، جـ3، ص266؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص266.
(3) ينظر: H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.
(4) ابن عذاري، البيان المغرب ،جـ3، ص231، 266؛ ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص440؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص233.
(5) الذخيرة، ق1، م2، ص769 .
(6) نفح الطيب، م4، ص322.
(7) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.622; ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.194.
(8) الضبي، بغية الملتمس، ص 345.
(9) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص27-28 ؛ السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص128؛ ابن سعيد الأندلسي، المغرب، جـ2، ص 441، ترجمة رقم: 627.
(10) الشنتريني، الذخيرة، ق2، م2، ص 562؛ السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص33، 38؛ ياقوت ، معجم البلدان، م3، ص145، 146.

بن سهل بن يوسف (ت: 480هـ=1087م) قد رأى وزيرها اليهودي، يستحم في حمام للمسلمين وبين يديه صبي يخدمه اسمه محمد ، واليهودي يناديه يا محمدال ، فغضب الفقيه ، إذ لاحظ أن الوزير اليهودي يتعمد أن يصغر اسم محمد إهانة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين، وقام بضرب اليهودي بحجر على رأسه فقتله[1].

ومرَّ أبو حفص العروضي الزكرمي بدانية، فطولب بمكس كان يتولاه يهودي، فأزعجه ذلك، واستنكره بقوله:

يا أهل دانية لقد خالفتم — حكم الشريعة والمروِّة فينا
مالي أراكم تأمرون بضدِّ ما — أمرت به ترى نسخ الإله الدينا
كنا نطالب لليهود بجزية — وأرى اليهود بجزية طلبونا
ما إن سمعنا مالكاً أفتى بذا — لا لا ولا من بعده سحنونا
هذا ولو أن الأئمة كلهم — حاشاهمُ بالمكس قد طلبونا
ما واجب مثلي يمكَّس عِدله — لو كان يعدل وزنه قاعونا
ولقد رجونا أن ننال بمدحكم — رِفداً يكون على الزمان معينا
فالآن نقنع بالسلامة منكم — لا تأخذوا منا ولا تعطونا[2]

كما عبر شعراء أندلسيون آخرون عن رفضهم لتولية يهود على رقاب المسلمين فقال الحسن بن الجد:

تحكمت اليهود على الفروج — وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأنذال فينا — وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا — زمانك إن عزمت على الخروج[3]

وقال ابن عتبة الإشبيلي عندما سُئل عن حاله في مصر بعد أن رحل إليها من سرقسطة التي كان أبو الفضل حسداي بن يوسف يشغل فيها منصب الوزير للمقتدر بن هود:

أصبحت في مصر مستضاماً — أرقص في دولة القرود
واضيعة العمر في أخيرٍ — مع النصارى أو اليهود
بالجدِّ رزق الأنام فيهم — لا بذوات ولا جدود
أودُّ من لؤمهم رجوعاً — للغرب في دولة ابن هود[4]

---

[1] الضبي، بغية الملتمس، ص 345-346.
[2] السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص33، 38.
[3] الشنتريني، الذخيرة، ق2، م2، ص562.
[4] المقري، نفح الطيب، م2، ص663-664.

وغضب الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الليبيري المعروف بالسميسير، عندما قام باديس بتولية نصراني يُدعى أبو الربيع، بعد ثورة مسلمي غرناطة على الوزير اليهودي يوسف بن إسماعيل وقتله[1]. وعبَّر الشاعر عن سخطه، وسخط مسلمي غرناطة، بنظم ثلاثة أبيات شعرية، وكتابة نسخ عدة منها، وإلقائها في طرقات وشوارع غرناطة، وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بأميرها المعتصم بن صمادح، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس ، ولما وقف باديس عليها، أرسل وراءه أصحاب الخيل ففاتهم ولم يلحقوه. والأبيات هي:

كلّ يوم إلى ورا	بُدِّل البول بالخرا
فزماناً تهوُّداً	وزماناً تنصّرا
وسيصبو إلى المجو	س إنِ الشيخ عُمِّرا[2]

إنَّ تولية يهود على رقاب المسلمين في بعض دويلات الطوائف ، لا يمكن أن يُعدّ تسامحاً ، بل هو في رأيي انحراف عن شريعة الإسلام التي نهت المسلمين عن موالاة اليهود والاستعانة بهم. والنصوص الشرعية التي تبين ذلك كثيرة، نذكر منها قول الله

تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [3]، وقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: "لا تأمنوهم إذ خونهم الله"[4]، وقوله للأنصار الذين قالوا له يوم أحد ألا نستعين بحلفائنا من يهود: "لا حاجة لنا فيهم"[5]، وكتب أحد عمال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كتاباً إليه يقول فيه: إن المال قد كثر ، وليس يحصيه إلا هم، فاكتب إلينا بما ترى ، فكتب إليهم: "لا تدخلوهم في دينكم، ولا تسلموهم ما منعهم الله منه، ولا تأمنوهم على أموالكم، وتعلموا الكتابة، فإنما هي حلية الرجال"[6].

وقد لاحظنا ما جناه مسلمو الأندلس في بعض دويلات عصر الطوائف من وراء هذا الانحراف. لقد أُهينوا وأُهين دينهم، وصاروا محكومين لليهود مع أنهم يعيشون في دار الإسلام وتحت حكمه، وصار بعض الضعفاء والجبناء من المسلمين مضطرين لنفاق اليهود ورؤسائهم ومدحهم مدحاً وصل في بعض الأحيان إلى حدِّ الكفر، كقول ابن خيرة لإسماعيل بن نغدله:

أدين بدين السبت جهراً لديكُمُ	وإن كنت في قومي أدين به سرّا[7]

وكانت نتائج هذا الانحراف سيئة أيضاً على يهود الأندلس أنفسهم، فبعد أكثر من ثلاثة قرون من العلاقات الحسنة بين السلطة واليهود في الأندلس في العهد الأموي، عاشها المسلمون في ظلِّ الالتزام بشريعتهم، وعاشها اليهود ملتزمين

---

[1] ابن بلقين، التبيان، ص66.
[2] السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص83-84.
[3] سورة المائدة، آية: 51.
[4] أبو يعلى الفراء، محمد بن الحسين، الأحكام السلطانية، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت)، ص32.
[5] مالك وآخرون، المدونة، م2، جـ3، ص40-41.
[6] ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ق1، ص210-211.
[7] الشنتريني، الذخيرة، ق1، م2، ص765.

بعهودهم، حدثت لليهود في غرناطة مذبحة كبيرة، قام بها عامة المسلمين ردّاً على تجاوزات اليهود الكثيرة وتسلّطهم الكبير الذي ما كان له أن يحدث لولا الانحراف الذي أوصلهم إلى المناصب العليا.

والمسؤول الأوَّل عن هذا الانحراف ونتائجه على المسلمين واليهود هم الحكام المنحرفون عن شريعة الله، فهم الذين "وكلوا أمور المسلمين إلى اليهود، فعاثوا فيهم عيث الأسود وجعلوهم حجاباً ووزراء وكتاباً"[1]. وقد تحدَّث ابن حزم عن هؤلاء الحكام المنحرفين الذين عاصرهم بقوله : "إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيئ من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد؛ والذي ترونه عياناً من شنِّهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلِّطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرَّم الله ، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم"[2].

ووصف ابن الكردبوس هذا النوع المنحرف من الحكام الذين صار اليهود في عهدهم وزراء وموظفين كبارا ً يتحكمون بالمسلمين ويسخرون من دينهم بقوله:" وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ، ليعينهم على مناوئيهم بأنجاد الرجال، واللعين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور، وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمور، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان، وكلٌّ واحد منهم يتنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق كي يوجهها إلى الفنش هدية، يتقرب بها إليه[3].

وتعبِّر رواية أخرى لابن الكردبوس عن معدن هذا النوع من الحكام، إذ بيَّن أن ابن رزين حسام الدولة صاحب شنتمرية ، حمل الهدايا النفيسة ، وتوجَّه بها إلى الملك الأسباني ألفونسو ليهنئه على احتلاله لطليطلة، فجازاه ألفونسو بإعطائه قرداً، احتقاراً له، لكن حسام الدولة عدَّ ذلك مفخرة له [4].

وقد هان هؤلاء الحكام حتى على أعدائهم ، إذ روي أن ألفونسو قال لابن مشعل اليهودي رسول ابن عبَّاد إليه:" كيف أترك قوماً مجَّانين ، تَسمَّى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون، وكل واحد منهم لا يسلُّ في الذب عن نفسه سيفاً ، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً ، قد أظهروا الفسوق والعصيان واعتكفوا على المغاني والعيدان ؟ وكيف يحلّ لبشر أن يقرّ منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيديهم سدىً"[5].

إن هذا النوع من الحكام هم الذين مكنوا اليهود من رقاب المسلمين ، وتركوهم يعيثون فساداً في ديارهم. ومن ضيَّع دينه لا يهمه بعده أعراضٌ للمسلمين تنتهك، ولا حرمات لهم تُدنَّس ، ولا يهتمُّ إلا بشهواته الرخيصة فقط.

---

[1] ابن الكردبوس، الاكتفاء، ص78.
[2] ابن حزم الأندلسي، الرد على ابن النغريلة اليهودي، ورسائل أخرى، ص173-174.
[3] الاكتفاء، ص77.
[4] م. ن، ص88.
[5] الاكتفاء، ص89.

وإن ما أصاب بعض مسلمي الأندلس من ذلٍّ وهوان على أيدي اليهود في عصر الطوائف وما حلَّ باليهود أنفسهم ، كان نتيجة طبيعية للانحراف عن أحكام الشريعة الإسلامية التي شرعها الله سبحانه وتعالى، لتحقِّق للملتزمين بأحكامها من المسلمين السعادة والعزَّة والحياة الفاضلة، ولمن رضي بالعيش تحت حكمها من غير المسلمين ، وعمل بأحكامها ، العدل والأمن والتسامح. ولن يجني المنحرفون عنها إلا التعاسة والشقاء والخسران المبين. "... فمن اتَّبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى. ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكى"[1].

تولى ملك غرناطة بعد باديس ابن ابنه عبد الله وهو ابن بلقين الذي سبق أن قتله يوسف بالسم[2]، وقد سمح لليهود بالعودة إلى غرناطة، ومنع أي اعتداء عليهم[3]. وقد امتنع يهود أليسانة التابعة له عن دفع الجزية المفروضة عليهم، حوالي سنة (483هـ=1090م)[4].

ويروي الأمير عبد الله هذه الحادثة في مذكراته، ويبين أن هناك سببين لامتناع اليهود عن دفع الجزية. يقول: إن أولهما يرجع إلى أننا "فرضنا على أهل أليسانة ذهباً كثيراً باسم التقوية، لم تجر عادتهم به، وحملناهم في ذلك على الصحة والانطباع فنفرت لذلك أنفسهم"[5] وثانيهما: قيام الأمير عبد الله باستدعاء ابن أبي الربيع اليهودي ليدله على أموال الدولة التي تبين أن والده أبو الربيع قد سرقها عندما كان خازناً للأموال في عهد باديس بن حبوس. وقد عرف ذلك بعد أن وجد المسلمون صندوقاً مملوءاً بالذهب في دار أبي الربيع أثناء حفرهم لأساس سورٍ يتصل بالحمراء، أمر ببنائه الأمير عبد الله. وكان ابن أبي الربيع صهراً لليهودي ابن ميمون الذي عينه الأمير عبد الله مسؤولاً عن جمع الجزية من يهود أليسانة، فقام ابن ميمون بمنع ابن أبي الربيع من الاستجابة للدعوة خوفاً عليه من التعذيب، وقام بتحريض اليهود على العصيان. "ووجد ابن ميمون المذكور السبيل إلى إغرائهم، وحملهم على النفاق، فأجابوه، ودخلوا في السلاح، ونادى فيهم أن: جدوا معشر بني إسرائيل في حماية أموالكم"[6].

وكان لابد من إنهاء هذا العصيان، ومعاقبة ابن ميمون الذي سبق أن ارتكب جريمة أخرى، عندما أقدم على قتل عامل الأمير ابن أبي لَولا؛ أرسل الأمير عبد الله جيشاً إلى أليسانة، تحت قيادة رجل يدعى مُؤَمِّل، ففرض حصاراً عليها، وقبل أن يقتحمها حدثت مفاوضات بينه وبين ابن ميمون[7]، مثل اليهود فيها الحبر إسحاق بن غياث[8]. وقد تم الاتفاق على أن يدفع يهود أليسانة الجزية وأن ترفع عنهم الأموال التي فرضت عليهم زيادة عليها. وعندما رجع مؤمل بجيشه التقى بالأمير عبد الله الذي كان قد خرج إليه بنفسه على رأس جيش آخر، ليسهم في القتال ضد يهود أليسانة، وشرح مؤمل للأمير

---

(1) سورة طه، آية: 123-124.
(2) ابن بلقين، التبيان، ص40.
(3) ASHTOR, THE JEWS, VOL.2, P.193.
(4) H. BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.
(5) التبيان، ص131.
(6) م. ن، ص131.
(7) م. ن، ص131.
(8) عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص62.

تفاصيل الاتفاق، ونصحه بالعودة، خشية من قيام ابن ميمون باستدعاء المعتمد بن عباد الذي صار قريباً من أليسانة عندما ضم إليه قرطبة، وكان ابن ميمون يشجع يهود أليسانة على الصمود بقوله: إنه سيستدعى ابن عباد ويدعمه ليسقط دولة غرناطة، ويضمها لمملكته. وأخذ الأمير بنصيحة مؤمل ليس خوفاً من التحالف الذي يهدد به ابن ميمون، إذ كان يستبعد أن يستجيب ابن عباد لليهود، وإنما لأن ما حدث من حصار لأليسانة كان كافياً لإرهاب يهودها المتمردين[1]. لكنه قرر أن ينتهج أسلوباً جديداً في التعامل مع ابن ميمون ومع يهود أليسانة مستفيداً من كره هؤلاء اليهود لابن ميمون، الذي ظلمهم عندما "استمال بها أقواماً من الغرباء، يصول بهم على أهل ملته"[2].

وهو يحدثنا عن سياسته الجديدة معهم وكيفية قضائه على ابن ميمون بقوله: "ووجست نفسي من ابن ميمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك، وعلمت أن هذه هدنة على دخَن، وأن لا طاعة تصح لي معه، وسيؤثر أمثال هذه، فدبت إليَّ المداخلة من اليهود المخمولين في زمانه، ووعدتهم بالإحسان، وتكرر في الوساطة ابن سيقي، حتى أبرمت من ذلك ما أمَّلته. وكان أخذ ابن ميمون يسيراً. لاعصبة له، وهو غافل. وكان الواسطة أيضاً ابن المرة مع أبي العباس الحكيم. وكان ذلك مما نقمه مؤمل لانحياشه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادتهم، وأمرت بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ، وأمرتُ أن لا زعيم فيهم بعد اليوم إلا الكل منهم أمناء مَنُّوْه بهم، فشكروا ورضوا. وخاطبت عامتهم نُعلمهم بما لهم في ذلك من الصلاح. وتهدنت الأحوال وقرَّت إلى أن تلف الكل"[3].

أما عن علاقة اليهود بالسلطة في إشبيلية التي أصبحت أهم مركز لليهود في الأندلس بعد التمزق الذي حل بيهود غرناطة، فيمكن التعرف عليها من خلال المعلومات القليلة التي تقدمها كل من المصادر الإسلامية واليهودية.

يروي الشنتريني أن مسلماً بطش بيهودي وجرحه وحرك عليه العامة وسط السوق في إشبيلية، بحجة أن هذا اليهودي سبَّ شريعة الإسلام. فقام صاحب المدينة عبد الله بن سلام بالقبض على المسلم وحبسه، فأنكر الناس عليه ذلك، وأظهروا تذمراً من تصرفه، فخاف ابن سلام وأرسل إلى حاكم إشبيلية المعتمد بن عباد الذي كان في قرطبة، يستشيره ويطلب تعليماته، فسارع المعتمد إلى إرسال ولده سراج الدولة إلى إشبيلية، وبعث معه جيشاً كثيفاً يضم نخبة من علمائه وخيرة رجاله ووزيره الوليد بن زيدون، بالرغم من مرضه. وكان القصد من إرسال هؤلاء إلى إشبيلية تهدئة العامة، والحيلولة دون حدوث اعتداء على يهود المدينة، أو على حاكمها الذي عاقب المسلم وترك اليهودي[4].

إن تصرف كل من عبد الله بن سلام والمعتمد بن عباد في هذه القضية يدل على حرص حكومة إشبيلية على العدل، فبالرغم من كون القضية بين مسلم ينتصر للشريعة، ويهودي يعتدي عليها، وبالرغم من أن الحاكم كان مسلماً، ويغضبه أن تمس الشريعة بأذى، إلا أنه سجن المسلم الذي ثبت عليه البطش باليهودي. لأن معاقبة المذنبين يهوداً أو مسلمين ليست من

---

[1] ابن بلقين، التبيان، ص131.
[2] م.ن، ص131.
[3] م. ن، ص132.
[4] الذخيرة، ق1، م1، ص418.

اختصاص أحد غير الدولة. وقانونها الإسلامي يقضي برفع الشكاوى إلى القاضي المسلم الذي يتحقق من صحتها إما باعتراف المتهم، أو بشهادة أخرى، فإذا ثبتت التهمة فعندئذ يتولى القاضي نفسه تقرير العقوبة. وأعتقد أن عدم وجود شاهد آخر على تهمة اليهودي هو الذي دفع ابن سلام إلى تركه. وما يفهم من رواية الشنتريني أن التهمة لم تكن ثابتة ولذلك قال: "فزعم أنه سب الشريعة"[1].

ولأن دولته كانت حريصة على العدل الذي يضمن لأهل الذمة الحماية، والأمان ولا يجيز معاقبتهم جميعاً بجرم أحدهم، سارع المعتمد إلى احتواء تلك الفتنة بكل ما أوتي من قوة، وذلك من أجل أن يمنع حدوث تطورات في إشبيلية قد تنزل باليهود كارثة، كتلك التي حدثت في غرناطة منذ عهد قريب، وتسبب في وقوعها غياب السلطة الحازمة التي تمنع اليهود من نقض عهودهم وتجاوز حدودهم، ولا تتجاهل مشاعر المسلمين وتذمرهم. وكان المعتمد حريصاً أيضاً على تهدئة اليهود الذين بطش بواحد منهم وجرح دون أن تثبت للدولة جريمته. ولذلك أصر على إرسال وزيره أبو الوليد بن زيدون، بالرغم من مرضه، لأنه خبير بالسياسة، وبشؤون أهل الذمة أيضاً، إذ سبق للمعتمد أن " قدمه إلى النظر على أهل الذمة، لبعض الأمور العارضة"[2]. فحقق في هذا المجال نجاحاً كبيراً، إذ يصفه الشنتريني بأنه صاحب "اشتداد في رعاية متقادم الذمة"[3].

وقد سُمح لليهود بالخدمة في قصور بني عباد ملوك إشبيلية ذوي النسب العربي، فعمل الحبر اليهودي إسحاق بن باروخ بن الباليه منجماً لدى المعتضد(415-462هـ= 1024-1069م[4]. كما خدم لديه أيضاً جوزيف بن ميغاش، وهو أحد الهاربين اليهود من غرناطة[5]. وعندما تولى المعتمد بن عباد حكم إشبيلية، قام باستدعاء إسحاق بن باروخ الباليه للعمل لديه منجماً، ثم قام بتعيينه رئيساً للطائفة اليهودية في مملكته[6]. فتولى جمع وتسليم الجزية المفروضة على اليهود للدولة. فأصبح إسحاق من أثرياء اليهود في إشبيلية، وصار الطلاب والمثقفون اليهود الذين يفدون لطلب العلم في هذه المدينة المزدهرة المتحضرة، يحظون بدعمه ورعايته[7]، كما استعمل إسحاق مركزه الذي منحه له المعتمد، في إنشاء مكتبة ضخمة، أنفق عليها أموالاً كثيرة، ووظف العديد من اليهود ليجمعوا له الكتب، وتمكن بماله وبجهود موظفيه من جمع كثير من كتب مكتبة يوسف بن إسماعيل التي فقدت في أحداث غرناطة[8].

---

(1) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص418.
(2) الشنتريني، الذخيرة، ق1، م1، ص337.
(3) م. ن، ق1، م1، ص419-420.
(4) H. BEINART, SEVILLE. ENCYCLPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1201.
(5) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.173
DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.629.
(6) الموسوعة العبرية، م25، 487; DUBNOV. HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.629;
ASHTOR, THE JEWS, VOL.3. P.170.
(7) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.170.
H. BEINART, SEVILLE, ENYCLOPEDIA JUDAICA, VOL. 14, P.1201.
(8) ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.170.

وكانت بعض العائلات اليهودية الإشبيلية الثرية مقربة من حكام إشبيلية، وحصل بعض أبنائها على وظائف حكومية، مثل عائلة كامنيل التي ظلت قريبة من السلطة لمدة طويلة. وعائلة ابن مهاجر التي ينتمي إليها أبو إسحاق إبراهيم بن مير بن مهاجر، الذي شغل منصباً مهماً في حكومة إشبيلية، ومنح لقب الوزير إضافة إلى ألقاب رنانة أخرى. وقد مدحه الشعراء اليهود المعاصرون له، وعدُّوه مخلصاً لشعبه، وراعياً للطوائف اليهودية في مملكة إشبيلية والبلدان البعيدة أيضاً. وكان أبو إسحاق عالماً ومتمرساً بالتعاليم اليهودية وخبيراً بعلم الفلك. وسخر سلطاته لفرض الانضباط الديني على يهود إشبيلية[1] وثمة عائلة أخرى احتلت موقع التقدير بين يهود إشبيلية في ختام القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وهي عائلة ابن يانوم، لكنها لم تكن مقربة من حكام إشبيلية[2].

لقد تدفق اليهود من معظم مناطق الأندلس والخارج إلى إمارة إشبيلية للاستقرار في ظل الحرية والتسامح والازدهار الاقتصادي والثقافي الذي وفره الحكام من بني عباد، لجميع السكان على اختلاف عناصرهم وأديانهم، فزادت أعداد اليهود هناك زيادة كبيرة[3].

وبالرغم من قلة مشاركة اليهود في الأحداث السياسية التي مرت بها إمارة إشبيلية إلا أنهم لم يغيبوا عنها تماماً. فبعد أن ضعفت دولة بني جهور في قرطبة نتيجة للصراع على حكمها بين الأخوين عبد الرحمن وعبد الملك ابني محمد بن جهور، طمع في السيطرة عليها كل من المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة، والمعتمد بن عباد حاكم إشبيلية، وتمكن حكم بن عكاشة من السيطرة على المدينة، وفتح أبوابها لابن ذي النون، الذي دخلها ثم ما لبث أن توفي، فاستنجد أهل قرطبة بابن عباد، وعندما دخلها هرب حكم بن عكاشة، وتمكن منه يهودي من رجال قرطبة فقتله عند قنطرتها، وذلك سنة (467هـ=1075م)[4]. ولم يخبرنا ابن الخطيب صاحب هذه الرواية بدوافع اليهودي من قتل ابن عكاشة، ولا بالكيفية التي تم فيها الحادث. ولكن تزامنه مع دخول ابن عباد إلى قرطبة، ومع هروب ابن عكاشة منها يؤكد على أن دوافع سياسية تقف وراءه، وهي على الأغلب رغبة هذا اليهودي في تسجيل موقف لليهود يحفظه لهم ابن عباد.

وقد شغل اليهود مناصب مهمة ووظائف حكومية في دول أخرى داخل الأندلس أثناء عصر الطوائف. ففي سرقسطة صار أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي وزيراً في عهد حاكمها المقتدر بالله بن محمد بن هود الجذامي (438-474هـ=1016-1081م)[5]. وكان حسداي يزعم أنه من ولد النبي موسى عليه السلام، وقد أعلن إسلامه[6]، لكن روايات المؤرخين المسلمين عن دوافعه وممارساته، تشككنا في صدقه، إذ يقول الشنتريني: "وذهبوا أن جارية ذهبت بلبه، وغلبته على قلبه، فجن بها جنونه، وخلع إليها دينه، وعلم بذلك صاحبها، فزفها إليه ووضع زمامها بين يديه، فتجافى عن موضعه

---

[1] ASHTOR, THE JEWS, VOL.3, P.172.

[2] IBID, VOL, 3, P.172; BEINART, SEVILLE, ENYCLOPEDIA JUDAICU, VOL, 14, P.1201.

[3] ينظر:. IBID, VOL, 3, P.171

[4] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص159 .

[5] الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص458-459؛ السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص128.

[6] المقري، نفح الطيب، م3، ص293-294.

من وصلها، أضيع ما كان بين دلالها ودلها، أنفةً من أن يظنّ الناس أن إسلامه كان من أجلها، فحسن ذكره، وخفي على كثير من الناس أمره"[1].

وكان صديقه المسلم أبو الفضل بن الدباغ الذي عرفه عن قرب يلمح في حديثه إليه، وتندره عليه أنه لم يكن إلا مدَّعياً للإسلام[2].

وقد استطاع حسداي بن يوسف بما أوتي من ذكاء وبلاغة أن يحظى بمكانة مرموقة لدى حاكم سرقسطة المقتدر بالله. وقد جمع ابن بسام في كتابه الذخيرة، كثيراً مما كتبه حسداي في مدح المقتدر، وهو مدح يدل على نفاقه الشديد، ويصور عقلية هذا الحاكم الذي يقرب يهودياً من أجل مديح كاذب. لقد امتدح حسداي كل شيئ في المقتدر[3]، حتى وصل إلى عوَرِهِ، فجعله ميزة يحسده عليها المبصرون، وساق إليه قول القائل:

شمس الضحى يعشي العيون ضياؤها	**إلا إذا نظرت بعين واحدة**
فلذاك تاه العور واحتقروا الورى	**فاعرف فضيلتهم وخذها فائدة**
نقصان جارحة أعانت أختها	**فكأنما قويت بعين واحدة[4]**

وظل حسداي بن يوسف بالرغم من إعلانه للإسلام ووصوله إلى منصب رفيع، يمارس فسقه ومجونه، وكان ابن الدباغ أحد أصدقائه الذين يجتمع معهم على موائد الخمر، وعندما غادر سرقسطة، أرسل إلى حسداي وأصحابه، يعلمهم أنه اعتزل الخمر وتاب إلى الله تعالى[5]، ومما قاله لهم: "وأنتم سادتي أخلاء النبيذ برئت منكم كما برئ المسيح من اليهود[6] "، فرد عليه حسداي برسالة يزين له فيها الفسق، ويرغبه في الخمر، ويؤكد له أنه هو الذي انحرف عندما ترك شرب الخمر[7]، ويقول: "فاعلم أن الغي ما أنت فيه منذ اليوم"[8].

وكان حسداي يكتب للمقتدر رسائله[9]، ويشاركه في رحلاته[10]، ويزكي عنده من رضي عنهم، إذا رغبوا في الحصول على وظيفة في دولة المقتدر[11] ويهجو بقلمه من كلفه المقتدر بهجائه[12].

---

[1] الذخيرة، ق3، م1، ص458؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص293-294، 401 .
[2] ينظر: العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، (القاهرة، دار نهضة مصر)، ق4، جـ2، ص353-354؛ المقري، نفح الطيب، م3، ص401-402.
[3] الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص479-485 .
[4] الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص482 .
[5] م. ن، ق3، م1، ص282-284 .
[6] م. ن، ق3، م1، ص283 .
[7] م. ن، ق3، م1، ص284-290 .
[8] م. ن، ق3، م1، ص285 .
[9] م. ن، ق3، م1، ص468-469 .
[10] م. ن، ق3، م1، ص493 .
[11] م. ن، ق3، م1، ص468 .
[12] م. ن، ق3، م1، ص905.

وقد لجأ إليه الأديب أبو الحسن الحصري[1] يشكو إليه ابن عباس اليهودي صهر حسداي، الذي رفض أن يعيد إليه رهنه، بالرغم من أن الحصري رد إليه المال الذي استدانه منه في الوقت المحدد[2].

وبحكم موقعه في دولة المقتدر بسرقسطة صارت لحسداي بن يوسف علاقات وطيدة مع شخصيات مرموقة في الإمارات والممالك المجاورة. وكان أبو بكر محمد بن عمار أحد الذين توثقت به علاقتهم، وقد كتب إليه رسالة من سجنه يقول فيها:

أدرك أخاك ولو بقافيةٍ كالطل يوقظ نائم الزهر

فلقد تقاذفت الركاب به في غير موماة ولا بحر[3]

وقد أثنى حاكم بلنسية أبو عبد الله بن طاهر على أبى الفضل حسداي، وذلك في رسالة بعث بها إلى المقتدر يقول فيها: "الوزير الكاتب أبو الفضل، وحيد الفضل، وينبوع النبل، وما عداه قول القائل:

إن أبا الفضل له فضلهُ وأين في الناس فتىً مثله[4]

غادر أبو الفضل حسداي سرقسطة دون أن يعلم المقتدر بعزمه على الرحيل، ثم أرسل إليه رسالة، لم يوضح فيها أسباب تركه لسرقسطة[5]، ورد عليه المقتدر يعاتبه على رحيله عنه من دون أن يخبره[6]. ويتضح من الرسالتين أن الرجلين ظلا حافظين للصداقة والود[7]. وانقطعت منذ تلك المراسلة أخبار أبى الفضل حسداي بن يوسف الإسرائيلي.

وبالرغم من الازدهار الاقتصادي والثقافي الذي تميزت به دول الطوائف في الأندلس[8]، إلا أن النزاعات المستمرة بين حكام هذه الدول قد أضعفتهم، وجعلتهم يفشلون في صد الهجمة الصليبية التي تعرضت لها الأندلس من قبل الممالك والإمارات النصرانية في الشمال، فسقطت بعض المدن الإسلامية في شمال الأندلس، واضطر حكام عددٍ من دول الطوائف إلى دفع الجزية لملوك النصارى. وكان لليهود موقف سلبي من المسلمين، حيث وقفوا إلى جانب ملوك النصارى وقدموا لهم العون. ففي سنة (448هـ=1056م)، استولى الكبيطور المعروف بالسيد على مدينة بلنسية بعد حصار دام عشرين شهراً، وحينما دخلها صلحاً غدر بها وأحرقها، وعاث فيها فساداً. ووقف يهود المدينة إلى جانب الجيش النصراني، فعين الكبيطور يهودياً لجمع الجزية من المسلمين، وأطلق يد اليهود للتنكيل بهم[9]. يقول ابن عذاري: "وبلغ اليهودي -لعنه الله- من المسلمين مبلغ الغاية في العذاب، وسلط اليهود على الإسلام، فبلغوا النهاية في النكال والنكاية، ومنهم الأمناء الموكلون،

---

(1) هو الأديب أبي الحسن علي بن عبد الغني الكفيف المعروف بالحصري، دخل الأندلس في منتصف المئة الخامسة من الهجرة، بعد خراب وطنه القيروان، وكان شاعراً وأديباً متميزاً، وبعد أن خلع ملوك الطوائف استقر في طنجة. ينظر: الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص245-447 .

(2) الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص453-454 .

(3) الشنتريني، الذخيرة، ق2، م1، ص401، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص128 .

(4) م. ن، ق3، م1، ص458-459 .

(5) الشنتريني، الذخيرة، ق3، م1، ص461، 462، ص494 .

(6) م. ن، ق3، م1، ص494 .

(7) م. ن، ق3، م1، ص461-462، ص494 .

(8) ينظر: عنان، محمد عبد الله، دول الطوائف، (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1380هـ-1960م)، ص407-421 .

(9) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص41 .

والمتصرفون، وأصحاب الرسوم، وخدام البر والبحر. وجلس اليهودي للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسّوط، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل عدو، فإن جاء بشيئ، وإلا أُخذ بالسوط والعذاب، وتمادت هذه المحنة مدة[1].

وبالرغم من تنكيل يهود بلنسية بأهلها المسلمين، إلا أن المصادر التاريخية لم تقدم أية إشارة إلى قيام المسلمين بالانتقام من يهود بلنسية بعد أن استعادها المرابطون سنة (495هـ=1102م).

وعندما اضطّر المعتمد إلى القبول بدفع الجزية لملك قشتاله أذفونش بن فرذلاند، أرسل أذفونش مع النصارى الذين بعثهم لقبض الجزية يهودياً اسمه عمرام بن شاليب بارع في شؤون النقد، وعندما وصلوا[2] "حلوا بباب من أبواب إشبيلية فوجه لهم المعتمد المال، مع جماعةٍ من وجوه دولته، فقال اليهودي: والله لا أخذت هذا المعيار، ولا آخذه منه إلا مشجراً، وبعد هذا العام لا آخذ منه إلا أجفان البلاد، ردوه إليه، فرد المال إلى المعتمد، وأعلم بالقصة، فدعا بالجند، وقال ائتوني باليهودي وأصحابه، واقطعوا حبال الخباء، ففعلوا وجاءوا بهم، فقال: اسجنوا النصارى، واصلبوا اليهودي الملعون، فقال اليهودي لا تفعل، وأنا أفتدى منك بزنتي مالاً، فقال: والله لو أعطيتني العدوة والأندلس ما قبلتهما منك، فصلب، فبلغ الخبر النصراني، فكتب فيهم، فوجه إليه بهم، فأقسم النصراني، أن يأتي من الجنود بعدد شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق"[3]. وهناك روايات أخرى لهذه الحادثة[4] منها رواية الحميري التي يقول فيها: "وسفر بذلك بينهما يهودي كان وزيراً لابن فرذلند،

---

[1] م. ن، جـ4، ص41 .

[2] المقري، نفح الطيب، م4، ص246؛
ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.631

[3] ابن خلدون، العبر، جـ4، ص158؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص246.

[4] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص244-245؛ ابن خلدون، العبر، جـ4، ص158.

فتكلم بين يدي المعتمد ببعض ما جاء به من عند صاحبه فأيأسه ابن عباد من جميع ذلك، فأغلظ له اليهودي في القول، وشافهه بما لم يحتمله، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه، فأنزلها على رأس اليهودي، فألقى دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوساً بقرطبة"[1].

لقد فجرت غطرسة اليهودي وعداؤه الأعمى للمسلمين الذين طالما أحسنوا إلى قومه، غضبة إسلاميةً عربيةً في نفس المعتمد، فلم يحتمل الإهانة والذل الذي يتعَمَّد اليهود والنصارى أن يلحقوه به وبالمسلمين، فقام بقتل هذا اليهودي، ودعا أمير المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين لدخول الأندلس لمساعدته في التصدي للصليبيين، وعندما قال له ولده: "يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا؟"، رد عليه بقوله: "أي بني والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم اللعنة عليَّ في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيري. حَرْزُ الجمال عندي والله خير من حرز الخنازير"[2]. ودخل المرابطون إلى الأندلس، وتوحدت دول الطوائف. وكان النصر في معركة الزلاقة (12-رجب-479هـ=23-تشرين أول-1086م) على أدفونش بن فرذلند وجنده من النصارى[3]، واليهود الذين شاركوا معهم في القتال بأعداد كبيرة[4]، نصراً مبيناً، ودرساً مهماً، يعلم المسلمين في كل وقت كيف يصنعوا من إهانة أعدائهم لهم، وتسلطهم عليهم، وحدة، وجهاداً، وانتصارات عظيمة.

---

[1] الحميري، الروض المعطار، ص288 .

[2] ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، جـ1، ص27-28 ؛ قارن: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص245.

[3] ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ2، ص100-101؛
ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص403-409.

[4] ينظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص134؛ ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، جـ1، ص57؛ الحميري، الروض المعطار، ص289-290؛ كحيلة، تاريخ النصارى في الأندلس، ص63-64.

المبحث الرابع

اليهود والسلطة في عهود المرابطين والموحدين

وسلطنة غرناطة

أولا ً: المرابطون واليهود:

قامت دولة المرابطين في المغرب على أساس الالتزام بأحكام الإسلام، والجهاد في سبيل الله. وقد رزقت هذه الدولة بقادة جمعوا بين التقوى والجهاد[1]، وكان على رأس هؤلاء يوسف بن تاشفين الذي لبى استغاثة مسلمي الأندلس وعبر إليهم بجيشه، فوحد ملوكهم وقادهم للنصر في معركة الزلاقة[2]، ثم قفل راجعاً إلى المغرب سنة (479هـ=1086م) بعد أن جمعهم ووعظهم وأخذ منهم عهداً بالعمل معاً ضد الهجمة الصليبية على الأندلس[3].

لكنّ ملوك الطوائف عادوا إلى منافساتهم وفرقتهم وضعفهم، وأصبحوا غير قادرين على حماية المسلمين وديارهم، فعاد إليهم سنة (483هـ=1090م)، فخلعهم وضم الأندلس إلى حكمه[4].

وكان حكام المرابطين متسامحين بوجه عام في تعاملهم مع اليهود، يفهم ذلك من خلال الإشارات الآتية:-

أولاً: عين أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين (500-537هـ= 1106-1142م) اليهودي أبا أيوب سليمان بن المعلم طبيباً خاصاً له، وكان يحمل لقب الوزير الفخري، وكان هو والطبيب اليهودي إبراهيم بن كامينال وكيلين ماليين للدولة يعملان في مجال جمع الجزية المفروضة على اليهود.

وقد أتيح لابن كامينال أن يخدم اليهود من خلال عمله في الدولة، ولذلك حصل على ثناء الشاعر اليهودي المعاصر له موسى بن عزرا الذي قال إنه كان درعاً لقومه عند حصول مشكلات لهم، وأنه بالرغم من وجوده في الأندلس إلا أن رعايته تصل إلى اليهود في العراق ومصر[5].

ثانيا ً: ذكر ابن عذاري أن مُعاهِدَةَ غرناطة شكوا إلى الأمير علي بن يوسف عند قدومه إليها، ولده حاكم غرناطة عمر بن علي، "فأمر بمحضره معهم في مجلس نظره، فأدلوا بحجج في ظلمه فسجنه لهم حتى أنصفهم من ظلامتهم[6]. ثم بعد ذلك أصابه طاعون كان سبب حتفه"[7].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص7-17؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص245.

(2) ابن بلقين، التبيان، ص104-106؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ2، ص100-101؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص246.

(3) ابن بلقين، التبيان، ص106؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص421-422.

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق3، تحقيق: أحمد مختار العبادي، ومحمد إبراهيم الكتاني، (الدار البيضاء، 1964م)، نشر تحت عنوان: "تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط"، ص353.

(5) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.728-729;
BROYDE, SEVILLE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.208;
الموسوعة العبرية، م25، ص487 .

(6) ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص77.

(7) م. ن، جـ4، ص77 .

وبالرغم من أن الرواية تحدثت عن المعاهدة الذين قد يكونون نصارى أو يهوداً أو كلاهما، إلا أنها تحمل دليلاً على سياسة إنصاف أهل الذمة التي انتهجها المرابطون.

ثالثا ً: كان لعمر بن علي بن يوسف كاتب يهودي، وقد عينه في هذا المنصب بالرغم من أنه كان مكروهاً لمسلمي غرناطة، ويبدو أنه كان كثير الإساءة إليهم[1]، إذ يبين ابن عذاري أنه يهودي ليس في أصوله فحسب، بل في أخلاقه السيئة أيضاً" وكان له كاتب يهودي الأعراق والأخلاق يبغض الناس ويبغضونه، أشأم قسمة على نفسه ورئيسه ومن اتصل به. فبدأ بشؤمه أميره يناله، فجرَّ إليه العزل وأورده السجن وأدَّاه إلى الهلكة، وغدا شؤمه عليه، فاستؤصل ماله، ونهبت داره، وطلب ليوقع به، ففرَّ وهلك بعد ذلك، وكان أشقر أزرق دميم الخَلق في وجهه خال"[2].

ومن المحتمل أن يكون اليهود قد تقلدوا وظائف أخرى لم تكشف عنها المصادر، بدليل ما جاء في إحدى الرسائل الرسمية المرابطية التي بعثها تاشفين بن علي إلى القضاة والفقهاء يأمرهم بعدم إسناد وظائف الدولة لأهل الذمة[3]. غير أن قراره الذي صدر سنة (538هـ=1143م) جاء متأخراً، أي قبل ثلاث سنوات فقط من سقوط دولة المرابطين، وهو يعكس على كل حال ما حدث على صعيد الواقع.

رابعا ً: أعاد المرابطون العائدون من معركة الزلاقة إلى اليهود أملاكهم التي سبق أن فقدوها أثناء الثورة على الوزير اليهودي يوسف بن إسماعيل، وقد فعلوا ذلك بالرغم من مشاركة يهود المناطق الإسلامية المحتلة مع النصارى في تلك المعركة[4].

خامسا ً: شهدت بعض المصادر اليهودية على تسامح المرابطين مع اليهود، إذ يقول برويد في الموسوعة اليهودية في مقالة له عن يهود إشبيلية: "لقد عاش يهود إشبيلية في سلامٍ تحت حكم المرابطين"[5]. وقد أشار إلى ذلك كل من دوبنوف[6] والموسوعة العبرية[7].

سادسا ً: ذكر صاحب الحلل الموشية أن فقيهاً قرطبياً قال للأمير يوسف بن تاشفين عندما جاء إلى قرطبة أنه وجد مجلداً من تأليف ابن مسرة الجبلي القرطبي يضم حديثاً مرفوعاً إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم يبين "أن اليهود ألزمت نفسها، أنها إذا جاءت الخمس مئة عام من بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يجئهم نبي منهم على ما زعموا، فإن الإسلام لازم لهم، لأنهم وجدوا في التوراة قول الله تعالى لموسى عليه السلام أن النبي الرسول الذي معناه محمد لابد

---

[1] م.ن، جـ4، ص77 .

[2] م. ن، جـ4، ص77 .

[3] مؤنس، حسين، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، (520-540هـ=1126-1145م)، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، (مدريد، 1954م)، م6، ع3، رسالة رقم1، ص113.

[4] الكواتي، اليهود في المغرب، ص216؛

H. GRAETZ, LES JUIFS D' ESPAGNE TRADUIT DE 1' ALLEMEND PAR GEORGES STENNE (PARIS, LIBRARIE HOUVELLE, 1872), P.183.

[5] SEVILLE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.208.

[6] HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.728-729.

[7] الموسوعة العبرية، م25، ص487.

من ظهور الحق على يده، ونوره متصل باتصال الساعة، فزعمت اليهود أنه منهم، وأنه إن لم يجيئ على رأس الخمس مئة عام، وإلا فهو هذا. فرفع هذا الفقيه القرطبي الأمر إلى أمير المسلمين. فاجتاز إلى مدينتهم [أليسانة] ليرى ما يصنع فيهم"[1]. ويكمل صاحب الحلل الموشية روايته لهذا الخبر "فيذكر أنه استخلص منهم جملة مالٍ بسبب ذلك، وأن قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن علي ابن حمد بن التغلبي أجرى مسألتهم معه على وجه تركهم ففعل"[2]. وتؤكد بعض المصادر النصرانية هذا الخبر، وتبين أن وجهاءهم خرجوا إليه، ورجوه أن يعفيهم من هذا الالتزام، واستعدوا مقابل ذلك أن يدفعوا إليه مبلغاً كبيراً، فوافق ولم يكرههم على الإسلام، وكان ذلك في سنة (500هـ=1106م)[3].

وأرى في عدم إجبار يوسف بن تاشفين اليهود على الوفاء بالتزام أجدادهم دليلاً على تسامحه وحكمته. فقد كان بإمكانه أن يكرههم على الإسلام دون أن يجد معارضة من فقهاء المسلمين، بسبب وجود ذلك الحديث. لكنه رأى أن قبوله لمالٍ يتقوى به المسلمون على أعدائهم، خير من أن يضم إلى صفوفهم مجموعة من المنافقين الهاربين من الحق، لن يزيدوا المسلمين إلا خبالاً.

وقد خاض بعض المؤرخين اليهود المعاصرين في هذه الحادثة، وصوروها على أنها محاولة لإكراههم على الإسلام، قد نجوا منها برشوة يوسف بن تاشفين بأموالهم[4].

سابعاً: لم تمنع سياسة التسامح التي انتهجها المرابطون مع اليهود أن يأخذوا حذرهم منهم، يدل على ذلك قول الحميري: "وكان علي بن يوسف منع اليهود من سكنى مراكش، فلا يدخلها أحد منهم إلا نهاراً، ثم ينصرفون في العشية، وليس دخولهم إياها إلا لأموره وما يختص به، ومتى عثر على أحد منهم بات بها استبيح ماله ودمه"[5].

ولا أجد في تصرف الأمير المرابطي تعصباً أو خروجاً عن سياسة التسامح. لأن من حق المرابطين بل من واجبهم أن يتخذوا كل الإجراءات الضرورية لحفظ أمنهم. وأرى أن المرابطين قد خصوا مراكش من بين مدن المغرب والأندلس بهذا الإجراء لأنها كانت "دار مملكة المرابطين"[6]، ولأنها خصصت لأمرائهم وجندهم، حيث "اتخذ يوسف بن تاشفين مدينة مراكش لنزوله ونزول عسكره"[7]. ولذلك يجب أن تبقى بعيدة عن غير الموثوقين الذين يمكن أن ينقلوا أسرارها وأخبارها لأعداء المسلمين، ويمكن أن يشتركوا معهم في مؤامرات ومكائد خطيرة. وقد خصوا اليهود بهذا الإجراء لأنهم يعلمون أن

---

[1] ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، ص80 .

[2] م.ن، ص80.

[3] نقلاً عن: ضياء باشا، الأندلس الذاهبة، دول الطوائف ودولة المرابطين وبداية دولة الموحدين، جـ2، (عمان-1989م) ص118؛ DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.728; H. BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.11, P.550.

[4] ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.728, H. BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA VOL.11, P.550.

[5] الروض المعطار، ص76-77. أكد ذلك الإدريسي فقال: "وكانت اليهود لا تسكن مراكش عن أمر أميرها علي بن يوسف". الإدريسي، وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر: هنري بيريس، (الجزائر، دار الكتاب، 1957م)، ص45.

[6] الناصري، الاستقصاء، جـ2، ص23.

[7] الناصري، الاستقصاء، جـ2، ص23.

التآمر والخيانة والإفساد ومعاداة المسلمين صفات ملازمة لليهود، لا يزيلها تسامح معهم، أو طول إحسان إليهم. وقد استمد المرابطون هذه التصورات من خلال التاريخ الطويل لليهود في معاداة الإسلام والمسلمين. ومن خلال القرآن الكريم الذي يُحذّر منهم كثيراً.

لقد تعامل المرابطون مع اليهود بهذه الروح المتسامحة بالرغم من علمهم بالتجارب المريرة التي عاناها المسلمون من اليهود في عصر الطوائف عندما وصلوا إلى مناصب عليا في بعض دولها، وبالرغم من علمهم بما فعله يهود بلنسية بالمسلمين عندما سقطت في يد النصارى[1]، وبالرغم من مشاركة اليهود الذين سبق أن نعموا بعدل المسلمين، في معركة الزلاقة إلى جانب النصارى[2]، ومشاركتهم أيضاً في معركة أقليش الشهيرة (16-شوال-501هـ= 29-مايو-1108م) إلى جانب الجيش القشتالي الذي هزم وقُتل قائده شانجه(SANCHO) ولي عهد ألفونسو السادس، وولده الوحيد بالرغم من تفوقه العددي، هذه المشاركة التي انقلبت إلى نكبة على رؤوس اليهود، حيث اتهمهم رجال الكنيسة وعلى رأسهم أسقف طليطلة برنارد (BERNARD) بأنهم سبب الهزيمة الكبيرة التي حلت بهم، إذ كانوا في ميسرة الجيش، ولم يصمدوا أمام ضربات المسلمين الذين بدأوا بهم، فلاذوا بالفرار، محدثين الذعر والارتباك في صفوف النصارى. لقد هاجم النصارى المنهزمون اليهود في طليطلة وبقية الأقاليم التابعة لهم، وصبوا عليهم جام غضبهم، فقتلوا الكثيرين، ونهبوا أموالهم وكان الوجيه اليهودي سليمان بن فاريسول أحد هؤلاء القتلى[3].

وأعتقد أن سياسة ضبط النفس واستمرار التسامح التي التزم بها المرابطون في تعاملهم مع اليهود، ترجع إلى مبادئ وأحكام الإسلام التي حرص المرابطون على تطبيقها في دولتهم. ومن أهم هذه المبادئ قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [5]. فلا يجوز على وفق هذه المبادئ أن يتحمل يهود غرناطة الذين ما زالوا في ذمة المسلمين، مثلاً خيانة أو جريمة يهود بلنسية أو طليطلة الذين خرجوا من ذمتهم. لقد التزم المرابطون كسلطة بذلك بالرغم من استغاثات مسلمي المناطق الأندلسية المحتلة التي تصور دور اليهود في التحريض عليهم والتنكيل بهم. ومن ذلك، الرسالة التي بعث بها الشاعر إبراهيم ابن محمد بن إبراهيم بن عبيد النفزي إلى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، يقول فيها:

---

[1] ينظر: ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ1، ص422، ترجمة رقم: 1198؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص41.

[2] ينظر: ابن سماك العاملي، الحلل الموشية، ص57 ؛ الحميري، الروض المعطار، ص289-290؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص134؛ BROYDE, SEVILLE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.486.

[3] DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.732; MEYER KAUSERLING, TOLEDO, THE JEWISH ENCYCLO PEDIA, VOL.12, P.176; BROYDE, SEVILLE, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.486; H. BEINART, TOLEDO, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.1200.
عن هذه المعركة، ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص425 .

[4] سورة فاطر، آية 18.

[5] سورة المائدة، آية 8.

أمير المسلمين ألا تعود	**لأندلس بها مرض شديدُ**
وأنت طبيبها والله يشفي	**فمالك لا تطب ولا تعود**
وشوذر ثم مرتش لو تراها	**ونار الكفر يضرمها اليهودُ[1]**

غير أن ما تحمله المرابطون كسلطة حاكمة ومسؤولة عن تطبيق قوانين الشريعة الإسلامية، لا يستطع أن يتحمله عامة المسلمين الذين تؤثر ردود الفعل والعواطف في تصرفاتهم، وخصوصاً عندما تتزامن أخطاء اليهود مع أحداث خطيرة على المسلمين، ويكون لليهود دور فيها. يقول ابن عذاري: "وثارت العامة بقرطبة في هذه السنة في رجب على اليهود - لعنهم الله- بسبب قتل وجد بين أظهرهم، ففتحت منازلهم، وانتهبت أموالهم، وقتل نفر منهم"[2] ويقول ابن قطان: "وقتل يهودي مسلماً سنة 529هـ، فاستطال المسلمون على اليهود فنهبت أموالهم، وهدمت ديارهم، وذلك بقرطبة"[3].

ولا أعتقدُ أن حادث القتل هذا، هو وحده الذي أدى إلى هذه الانتفاضة على يهود قرطبة، فمثل هذه الانتفاضات تحدث عادة بعد استفزازات متواصلة وكثيرة تولد غضبا ً، يظل يزداد ويتراكم حتى تأتي الشرارة التي تفجره. ولا نملك معلومات مفصلة عن أسباب هذا الغضب، إلا أن مشاركة يهود المناطق الأندلسية المحتلة في الهجمات الصليبية على الأندلس، ودعمهم لها بأموالهم[4]، وقيامهم بالتحريض على مسلمي تلك المناطق، والمشاركة في إذلالهم والتنكيل بهم[5]، تكفى لإثارة غضب مسلمي قرطبة الذين طالما أحسنوا إلى اليهود. إضافة إلى أن هذا الحادث كان قريباً من هجمة صليبية خطيرة كانت ستوقع قرطبة في أيدي الصليبيين، حيث فاجأ الجيش القشتالي جنود المرابطين شمالي قرطبة في ذي الحجة سنة (528هـ=1133م)، ففر معظم الجنود، وما عادوا وحققوا النصر، وحموا مدينتهم إلا عندما رأوا قائدهم تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين ثابتاً رابط الجأش يقاتل[6] ويقول: "لا أسلم وأسلم الأمة ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت عليه هذه الكرة"[7].

---

[1] الحسين، يعقوبي، قصائد غير منشورة، في الاستصراخ والإصراخ، مجلة دراسات أندلسية، ع5، (1411هـ-1990م)، ص80.
[2] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص93 .
[3] نظم الجمان، ص217.
[4] ينظر: DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.732.
[5] ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص41؛ الحسين، دراسات أندلسية، ع5، سنة (1411هـ-1990م)، ص80.
[6] ينظر: .ابن عذاري، البيان المغرب، جـ4، ص90
[7] م. ن، جـ4، ص90.

ثانياً: الموحدون واليهود:

ظهر الضعف على الدولة المرابطية في أواخر أيامها، نتيجة لضعف الالتزام بالمبادئ التي قامت عليها الدولة وقويت بها[1]، وأصبح المرابطون غير قادرين على الصمود في وجه الصليبية التي حشدت لاحتلال الأندلس كل إمكانات النصارى في أسبانيا الشمالية وأوروبا، ورأى مسلمو الأندلس مدنهم تتساقط واحدة تلو الأخرى[2]، فاستغاثوا بالموحدين[3]، الذين أقاموا دولتهم في المغرب مكان دولة المرابطين، على المبادئ التي دعا إليها زعيمهم الأول أبو عبد الله المهدي محمد بن تومرت، وهي صفاء العقيدة، والتوحيد الخالص، والتمسك بالدين وتطبيقه، ونبذ كل ما لا يرتضيه[4].

بدأت سيطرة الموحدين على الأندلس سنة (541هـ=1146م)[5]، وقد وقف اليهود من الموحدين موقفاً سلبياً، يظهر من خلال رواية ابن صاحب الصلاة، التي يشرح فيها كيف تآمر يهود غرناطة مع إبراهيم بن همشك الخارج على حكم الموحدين، حيث اتفق معهم على أن يأتيهم في ليلة معينة إلى باب الربض بغرناطة، فيكسروه له، فيدخلها هو وجنوده، وقد تم ذلك حسب الاتفاق ودخل ابن همشك بجنوده إلى المدينة، لكن الخليفة الموحدي بعث إليهم جيشاً سنة (558هـ=1162م)، استعادها وفتك بالخارجين ومن معهم من المتآمرين اليهود[6].

كما وقف يهود المناطق الأندلسية المحتلة من الأسبان في حربهم ضد الموحدين، يحدثنا عن ذلك الضبي، إذ يقول في معرض وصفه لجيش ألفونسو الثامن، أنه كان "ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومئتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود، وقد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدوا أمولاً، فهزمهم الله تعالى"[7].

---

[1] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص177، 208؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص265.
[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص265؛ المقري، نفح الطيب، م4، ص461-463.
[3] ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص265؛ المقري، نفح الطيب، م2، ص30.
[4] ابن جبير، محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، (بيروت، دار مكتبة الهلال، 1981م)، ص50؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص248-249.
[5] ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ2، ص199؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص265.
[6] المن بالإمامة، ص187.
[7] بغية الملتمس، ص45-46.

وعندما فرّ النصارى واليهود المنهزمون إلى طليطلة، لاحقهم الجيش الإسلامي المنتصر، وفرض حصاراً على المدينة، وقام اليهود -حسب المصادر اليهودية- بالمشاركة في الدفاع عنها، وإجبار المسلمين على الانسحاب[1].

أما عن سياسة الموحدين مع اليهود، فلم أجد في ما اطلعت عليه من مصادر إسلامية معلومات كافية، تمكننا من تقديم صورة واضحة عنها، لكن المعلومات القليلة التي تذكرها تكفي لنفي ما تردّدَ في الدراسات والمصادر اليهودية، من أنّ يهود الأندلس أُرغموا بالقوة على الدخول في الإسلام، وأن بِيَعهم حُوِّلت إلى مساجد، وأنهم جُرّدوا من التوراة، ومزِّقت كتبهم الدينية، وأنهم ظلوا يتظاهرون بالإسلام إلى نهاية عهد الموحدين في الأندلس، والذي استمر إلى سنة (620هـ=1223م)[2].

وهناك أسباب تقود إلى رفض ما أوردته المصادر اليهودية، ووضعه ضمن أكاذيب اليهود ومبالغاتهم، وهذه الأسباب هي:-

1- رواية عبد الواحد المراكشي التي يبيّن فيها أنَّ الخليفة الموحدي أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمر في أواخر أيامه بأنْ يُميَّز اليهود عن غيرهم "بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثيابٌ كحيلة، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع، تبلغ إلى تحت آذانهم، فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبي عبد الله، إلى أن غيّره أبو عبد الله المذكور، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة، واستشفعوا بكل من يظنون أنّ شفاعته تنفعهم، فأمرهم أبو عبد الله بلباس ثياب صفر وعمائم صفر، فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا - وهو سنة 621هـ-"[3].

وعند التأمل في هذه الرواية يتبيّن وجود يهود في الأندلس يعلنون عن دينهم، بدليل أنه يفرض عليهم زياً خاصاً، وأنهم يطالبون الخليفة رسمياً كيهود بتغيير هذا الزي، ولو أنهم كانوا يُكرهون على الإسلام، ويضطرون للتظاهر به، لما فرض عليهم زياً، ولما قاموا كيهود بالمطالبة بتغيير الزي، وتبديله بزي

---

(1) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.734.

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.729-731; GOITEIN, SOLOMON DUB FRITZ, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, (PRINCENTON UNIVERSITY DECEMBER 1972), P.52, 208-209; BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.486.

(3) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص304، 305.

آخر. وفي قول المراكشي: "جميع يهود المغرب" مؤشر إلى وجود اليهود في المغرب والأندلس في عهد الموحدين.

2- نفى الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب (580-595هـ=1184-1198م) إلى أليسانة أبا الوليد محمد بن أحمد بن رشد، "لقول من قال إنه ينسب في بني إسرائيل، وإنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس..."[1].

وأجد في تصرف الخليفة الموحدي هذا دليلاً على وجود اليهود في عهد الموحدين في أليسانة، فلو أنها كانت خالية منهم، أو أن سكانها كانوا معلنين إسلامهم، لما نفي إليها ابن رشد، إذا أن الغرض من نفيه إلى مدينة اليهود كان توجيه الإهانة له، وتأكيد اتهام أعدائه له بأنه من أصول يهودية.

3- لم يرد في المصادر الأندلسية أو المغربية ما يدلُّ على قيام الموحدين بإجبار اليهود على الدخول في الإسلام، ولو حدث ذلك فعلاً لذكرته مصادرنا بشكلٍ واضح، إذ يعد ذلك حدثاً مهماً لا يمكن أن تجمع مصادرنا على إهماله لو أنه وقع فعلاً.

4- رواية المؤرخ الأندلسي المعاصر للموحدين ابن صاحب الصلاة التي يقول فيها: "وكان في بياسة سنة (553هـ=1158م) عالم غرناطي يدعى عبد الله بن سهل، يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود[2]. ولو كانت الأندلس خالية من اليهود، وأنهم كانوا مضطرون للتظاهر بالإسلام كما تزعم مصادرهم ودراساتهم، لما وُجِد يهود يحضرون الدروس في زمن حكم الموحدين للأندلس.

5- اشتهر عدد من الكتاب اليهود في زمن الموحدين، أمثال يوسف زبارا الأندلسي (ت: 597هـ=1200م) وهو صاحب كتاب "البهجة والسرور"[3]، ولو أنهم أكرهوا على الإسلام، لما لمعت أسماؤهم كيهود، ولما مارسوا نشاطهم الفكري فيها. كما مارس الأحبار اليهود تعليمهم الديني في زمن الموحدين، فقد ذُكر أن موسى بن ميمون قد تتلمذ في مدينة فاس عاصمة الموحدين على يدي يهوذا الكاهن[4].

---

[1] ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص26، ترجمة رقم: 51.
[2] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص400.
[3] هنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي، ص120-121.
[4] عبد المجيد، اليهود في الأندلس، ص88-89.

6- إن تناقض المعلومات التي تقدِّمها المصادر اليهودية، يدعو إلى الشك في جميع المعلومات التي توردها عن هذا الموضوع، ومن ذلك التناقض، قول بعض المصادر إنّ ضغط الموحدين عليهم، وإكراههم، قد استمر لمدة عشر سنوات فقط[1]، في حين أن مصادر أخرى ذكرت أنه استمر طوال مدة حكم الموحدين للأندلس[2].

7- أقام الموحدون في المغرب والأندلس دولة ملتزمة بالإسلام، حريصة على تنفيذ تعاليمه، ولا يعقل أبداً أن يقدموا على مخالفة نص قرآني واضح وصريح، وهو قول الله تعالى: "لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ..."[3]، ولم يعرف عن المسلمين عبر تاريخهم الطويل أنهم أكرهوا أحداً على الإسلام، فكيف يعقل أن يقدم الموحدون على ذلك، وهم الملتزمون بالإسلام والداعون إلى الالتزام بمبادئه؟! .

---

(1) H. BEINART, CORDOBA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.3, P.964-965; H. BEINART, LUCENA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.5, P.550;
مقالة أسبانيا، الموسوعة اليهودية -بالعبرية-، ص286.

(2) DUBNOV, HISTORY OF THE JEWS, VOL.2, P.729-731;
GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.52;
BROYDE, SPAIN, THE JEWISH ENCYCLOPEDIA, VOL.11, P.486.

(3) سورة البقرة، من الآية 256.

ثالثا ً: سلطنة غرناطة واليهود

أدى الموحدون دورهم في حماية الأندلس، وحققوا انتصارات كبيرة على الصليبيين وحرروا بعض المدن الأندلسية من قبضتهم[1]. ثم أصابهم الضعف الذي ينتظر كل قوي على هذه الأرض، مهما كانت قوته، ومهما طال أمدها، فهُزم الموحدون في معركة العقاب سنة (609هـ=1212م)[2]، وكانت هذه الهزيمة "أوَّلُ وَهَنٍ دخل على الموحدين"[3]، حيث تساقطت بعدها المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى، ولم يستطع المسلمون أن يحتفظوا إلا بغرناطة وما حولها من مناطق جنوبي الأندلس، وأقاموا فيها مملكة تعاقب على حكمها سلاطين ينتسبون إلى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الأنصاري، وكان أوّلهم، ومؤسس هذه السلطنة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر. واستطاع بنو الأحمر أن يحفظوا سلطنتهم لأكثر من قرنين ونصف بالرغم من قوة الممالك الأسبانية القريبة منهم، والطامعة في أملاك المسلمين[4].

لم أجد عن يهود سلطنة غرناطة في المصادر الإسلامية إلا القليل من المعلومات. وتشكو المصادر اليهودية كذلك من قلة المعلومات المتوفرة لديها عن هذا الموضوع[5].

لكننا نستطيع أن نستنتج أن بني الأحمر تعاملوا مع اليهود على وفق الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة، فأعطوهم حقوقهم كاملةً، وألزموهم بكل ما عليهم من واجبات، من غير تشدد أو تفريط. ويبدو أنهم أفادوا من تجارب الحكومات الإسلامية السابقة في الأندلس، والتي تظهر أن المبالغة في التساهل معهم تضر بهم وبالمسلمين، وأن المبالغة في التشدد معهم تحقق أيضاً النتيجة نفسها، وأن الحل هو فقط في اتباع السياسة التي رسمتها شريعة الإسلام. والمعلومات والإشارات التاريخية الآتية هي التي تقودنا إلى هذا الاستنتاج.

أولاً:- جُعل لليهود لباس خاص يميّزهم عن المسلمين، ويُعرفون به[6] فكانوا يعتمرون "قلنسوة صفراء، إذ لا سبيل ليهودي أن يتعمم البتة"[7]، وكان بعض الحكام يصدرون أوامر خاصة بلباس اليهود، عندما يلاحظون تراخياً منهم في التزام زيهم.

يروي ابن الخطيب، وهو شاهد عيان من غرناطة بني الأحمر أنه: "لما تصيَّرَ الأمر إلى السلطان نصر سنة (708هـ)، اشتدّ في إقامة الحدود، وإراقة المسكرات، وأخذ يهودُ الذمة بالتزام سمة تشهرهم، وشارة تميزهم ليوفوا حقهم من المعاملة التي أمَر بها الشارع في الطرق والخطاب"[8]. كما حظر عليهم ركوب الجياد[9]. ويقول ابن الخطيب: إن من

---

(1) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، جـ6، ص198، ترجمة رقم: 569؛ الضبي، بغية الملتمس، ص66-67؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص265، 271.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص321 –322؛ ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص383، المقري، نفح الطيب، م4، ص383.

(3) الحميري، الروض المعطار، ص138.

(4) ينظر: الحجي، التاريخ الأندلسي، ص515-517.

(5) H. BEINART. GRANADA, ENCYCLPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852;

(6) ينظر: مناقشة مسألة الزي الخاص باليهود في الفصل الرابع من هذا البحث.

(7) المقري، نفح الطيب، م1، ص223.

(8) الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص383.

(9) م. ن، ص388.

مناقب السلطان أبو الوليد إسماعيل بن فرج (713-725هـ) أنه "أخذَ يهود الذمة بالتزام سمة تشهرهم، وشارة تميزهم، وليوفى حقهم من المعاملة التي أمَر بها الشارع في الخطاب والطرق، وهي شواشي صفر[1]".

وكونُ ابن الخطيب يَعدُّ هذا العمل من مناقب ذلك السلطان، دليل على أن بعض السلاطين كانوا يتهاونون في تطبيقه، وهو دليل أيضاً على أنه كان مطلباً للمسلمين[2].

ثانياً:- استخدم سلاطين غرناطة بعض تجار اليهود جواسيس لهم على النصارى في الممالك الأسبانية، لكنهم لم يعينوا يهودياً واحداً في منصب كبير طوال مدَّة حكمهم لغرناطة التي زادت على قرنين ونصف[3].

ثالثاً:- أدَّت السياسة المتوازنة التي اتَّبعها سلاطين غرناطة مع اليهود إلى عدم قيامهم بأي تمرد على حكمهم، كما لم تقم أية انتفاضات شعبية عليهم[4]، كتلك التي حدثت في غرناطة في عهد باديس بن حبوس.

رابعا ً:- صارت غرناطة المسلمة ملجأ لليهود الهاربين من اضطهادات النصارى لهم[5]، تلك الاضطهادات التي نتجت عن ممارسة اليهود للرِّبا بأبشع صوره، إذ صاروا يسيطرون على اقتصاديات الممالك النصرانية، ويتحكمون في شعوبها، بعد أن أغرقوها بالديون لهم[6].

خامسا ً:- استُخدِمَ الطبيب يحيى بن الصائغ اليهودي، طبيباً خاصاً لبني الأحمر في أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. وقد تبيَّن للسلطان أبي الحجاج يوسف الثاني (793-797هـ=1390-1394م)، أنه أعدَّ سُماً لقتله بتدبير من خالد القائم بدولته. فقام بقتل خالد، وسجن اليهودي، ثم قتله في السجن سنة (794هـ=1391م)[7].

وعندما شهدت سنة (794هـ=1391م) مذابح مروعة لليهود، وتدميراً لمعابدهم، وإجباراً على التنصر، قامت به جماهير النصارى ورجال دينهم، بدأ في إشبيلية ثم انتقل إلى جميع المدن الأسبانية[8]، تدفق المهاجرون اليهود إلى غرناطة والشمال الأفريقي التي يحكمها المسلمون، وقد أظهر المُنَصَّرُون يهوديتهم عندما صاروا تحت حكم المسلمين[9].

وقد حصلت هجرات يهودية أخرى إلى غرناطة قبل أحداث سنة 794هـ في إشبيلية، وكان عدد اليهود الذين لجأوا إلى غرناطة في إحدى المرَّات ثلاث مئة عائلة يهودية، وقد حدث ذلك سنة(766هـ=1367م)، في عهد السلطان أبي عبد الله محمد الخامس[10].

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م1، ص388.
[2] ينظر: م.ن، ص388.
[3] فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص63-77.
[4] فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص97.
[5] م.ن، ص97-98.
[6] H. BEINART, TOLEDO, ENCYCLPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.1203-1204.
[7] ابن خلدون، العبر، جـ4، ص178-179.
[8] H. BEINART, SEVILLE, ENCYCLPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1204.
مقالة أسبانية، الموسوعة العبرية، م 26، ص380.
[9] H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.
[10] فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص97-98.

سادساً:- استخدم بعض حكام الممالك النصرانية اليهودَ في سفاراتهم إلى مملكة غرناطة[1]، ومن هؤلاء السفراء الحكيم بن زرزار[2]، ويوسف بن وقار الإسرائيلي الطليطلي[3]. وقد عومل هؤلاء السفراء معاملة حسنةً، وقد تحدَّث ابن الخطيب عن علاقته الحسنة مع هذين السفيرين[4]، وبين أنه استعان بيوسف بن وقَّار في الحصول على أخبار ملوك قشتالة، ويظهر نص رواية ابن الخطيب الاحترام المتبادل بينهما، إذ يقول: "وقد كنتُ طلبتُ شيئاً من ذلك [أخبار ملوك قشتالة] من مظنته، وهو الحكيم الشهير، طبيب دار قشتالة وأستاذ علمائها، يوسف بن وقَّار الإسرائيلي الطليطلي، ولما وصل إلينا في غرض الرياسة عن سلطانه"[5]، ثم ينقل ابن الخطيب ما جاء في رسالة ابن وقار إليه بقوله: " قال الحكيم: "سألت أعزك الله وأدام كرامتك أن أثبت لك ما تحقق عندي من التواريخ التي وقع فيها نسب ملك قشتالة وتفرع ملوكها، فأثبت لك ذلك مما استخرجته من الكتاب الذي أمر بعمله الملك الأعظم دون ألفنش، قصدتُ أن يكون ذلك عندك بأصل"[6].

سابعاً:- لم تُغير المواقف والممارسات السيئة لليهود ضد مسلمي غرناطة وضد المسلمين الخاضعين لحكم النصارى موقف سلاطين ومسلمي غرناطة من اليهود الذين يعيشون تحت حكمهم، وظلت الأحكام الشرعية الخاصة بأهل الذمة هي التي تحكم العلاقة بين المسلمين واليهود.

ومن مواقف وممارسات يهود أسبانيا النصرانية ضدَّ المسلمين، قيامهم بمساعدة جيمس الأول ملك أراغون للاستيلاء على مرسية سنة (641هـ=1243م) بعد أن استعادها المسلمون الذين ثاروا على الحكم النصراني وسيطروا على المدينة، ومن أولئك الذين قدموا الدَّعم للنصارى، يهودا دي لا كافاليرا (JUDAH DE LA CAVALERIA)، الذي قام بإقراض المال لتجهيز السفن البحرية التي حاربت مسلمي مرسية[7]، وكان اليهود يتولون للنصارى جمع الضرائب من المسلمين، ويعاملونهم بمنتهى القسوة، ولذلك أوكلت إليهم هذه المهمة في مرسية وما حولها، منذ احتلالها، وحتى نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. ومن الذين تولوا هذه المهمة في مرسية إسحاق بن يعيش سنة (707هـ=1307م)، وسليمان بن لوب الذي حصل على حماية خاصة من ملك أراجون ثم رحل عنها إلى ميورقة سنة (780هـ=1378م)[8].

كما أسهم اليهود في الحرب ضد سلطنة غرناطة، ففي سنة (894هـ=1488م) حصل صاموئيل أبو العافية على حماية الملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا تقديراً له على خدماته لجيشهما خلال الحرب ضد سلطنة غرناطة[9]، وكان اليهود قد أظهروا ترحيبهم وتعاونهم مع ملوك النَّصارى حينما بدأت المدن الأندلسية تسقط في أيديهم، فلما احتلَّت جيوش

---

(1) H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص333-334.

(3) م. ن، ق2، ص332.

(4) م. ن، ق2، ص332-334.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص322.

(6) م. ن، ق2، ص322.

(7) H. BEINART. MURCIA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.12, P.530.

(8) IBID VOL.12, P.530.

(9) IBID VOL.12, P.530.

فرديناند الثالث (614-650هـ=1217-1252م) إشبيلية سنة (646هـ=1248م)، خرج يهودها لاستقباله، وقد أعدوا له مفتاحاً نُقش عليه بالعبرية عبارة تقول: "سيفتحها ملك الملوك، وسيأتي ملك الأرض"[1].

وقد قدَّم لهم فرديناند الثالث ثلاثة مساجد تقع بالقرب من حيهم، ليقيموا عليها معابد لهم، إضافة إلى العديد من المنازل والبساتين التي كانت تعود للمسلمين، وذلك مكافأةً لهم على موقفهم وخدماتهم في الحرب ضد المسلمين[2].

وفي مطلع القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي سمحت السلطات النصرانية في طليطلة لليهود بامتلاك عبيد مسلمين، ويبدو أن اليهود قد قسوا كثيراً على مسلمي هذه المدينة[3]، ولذلك نجدهم سنة (756هـ=1355م) يشاركون النصارى في الهجوم على الحي اليهودي في طليطلة[4].

ثامناً:- عندما وضع فقهاء المسلمين شروط سلطنة غرناطة لقبول الاستسلام للملكين الكاثوليكيين فرديناد وإيزابيلا، سنة (897هـ=1491م) لم ينسوا أن يضعوا شرطاً يقضي "بأن يتمتع اليهودُ من أهل غرناطة والبيَّازين وأرباضهما، والأراضي التابعة لها، بما في هذا العهد من الامتيازات، وأن يسمح لهم بالعبور إلى المغرب خلال ثلاثة أشهر، تبدأ من يوم 18-ديسمبر"[5]، 1491م.

ولأن الفقهاء لا يجهلون طبيعة اليهود، ويعلمون ما فعلوه بالمسلمين عندما تولّوا جمع الضرائب منهم في المدن الأندلسية المحتلة، اشترطوا " ألا يُوَلّى على المسلمين مباشر يهودي، أو يُمنح أية سلطة أو ولاية عليهم"[6]. وقبلت الشروط، وتم التوقيع على المعاهدة بتاريخ (21-محرم-897هـ=25-11-1491م)[7]، وسرعان ما نقض النصارى عهدهم، وخرقوا شروط المعاهدة شرطاً شرطاً. وأصدر الملكان بخصوص اليهود قراراً يأمر بطردهم من أسبانيا وغرناطة بتاريخ 31-2-1492م[8]. وبذلك خانا عهديهما الذي جاء فيه: " إن ملكي قشتالة يؤكدان ويضمنان بدينهما وشرفهما الملكي، القيام بكلِّ ما يحتويه هذا العهد من النصوص، ويوقعانه باسميهما ويمهرانه بخاتميهما"[9].

---

(1) H. BEINART, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1202.
ما يزال هذا المفتاح محفوظاً في كاتدرائية إشبيلية. ينظر:
H. BEINART, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1202.

(2) H. BEINART, SEVILLE, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1202

(3) H. BEINART, TOLEDO, ENCYCLPEDIA JUDAICA, VOL.15, P.1203.

(4) IBID, VOL.15, P.1204.

(5) عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس، (مصر، ط2، 1958م)، ص234. ينظر:
H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.852.

(6) عنان، نهاية الأندلس، ص232؛ ينظر: IBID, VOL.7, P.853.
يذكرنا ذلك بأحد شروط استسلام مسلمي طليطلة للنصارى سنة (509هـ= 1115م)، حيث نص على منع اليهود من شراء أسرى حرب مسلمين، ومنعهم من تولي القضاء الخاص بالمسلمين. ينظر: الموسوعة العبرية، م 26، ص384.

(7) عنان، نهاية الأندلس، ص236.

(8) H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.7, P.853.

(9) عنان، نهاية الأندلس، ص235.

وقد نُفذ قرار طرد اليهود من أسبانيا النصرانية تنفيذاً صارماً، وتدفق المهجَّرون اليهود يبحثون عن ملجأ آمن يأويهم، فوقع اختيار معظمهم على شمال أفريقيا[1]، ودول المشرق[2]، التي ما تزال شمس الإسلام تسطع في سمائها، وتفيض دفئاً وعدلاً وحريةً وتسامحاً على كل الذين يحيون بنورها، أو يستضيئون بضيائها، ذلك النور الذي طالما حاول اليهود وغيرهم من عشاق الظلام أن يطفئوه بأفواههم، بالرّغم من أنه بدَّدَ الظلم والظلمات عنهم، منذ أن أشرقت به أرض الأندلس سنة (92هـ=711م).

(1) H. BEINART, GRANADA, ENCYCLOPEDIA JUDAICA, VOL.14, P.1205.

(2) ينظر: S. D, GOITEIN, LETTERS OF MEDIEVAL JEWISH TRADERS, P.52, 208-209.